Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

إلى الأستاذ البير أديب

... مع الإعجاب بنضالكم الدائب،
في سبيل تحرير أدب العرب، اقبلوا
هديتي، مع أعمق معاني الود
والاحترام

المؤلف
[illegible]
٢٧ / ٢ / ١٩٥٢

893.19
J22

الغلاف بريشة : الفنان رضوان .

نجيب جمال الدين

خليل مطران

شاعر العصر

قدم له الشاعر

صلاح اللبابيدي

أبو ليلى

أيلول ١٩٤٩

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

نسخة إلكترونية

نشأة الأدب في شعر العرب

من تأليف
عبد الله العلايلي

طبعة أولى
١٩٤٩ بغداد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

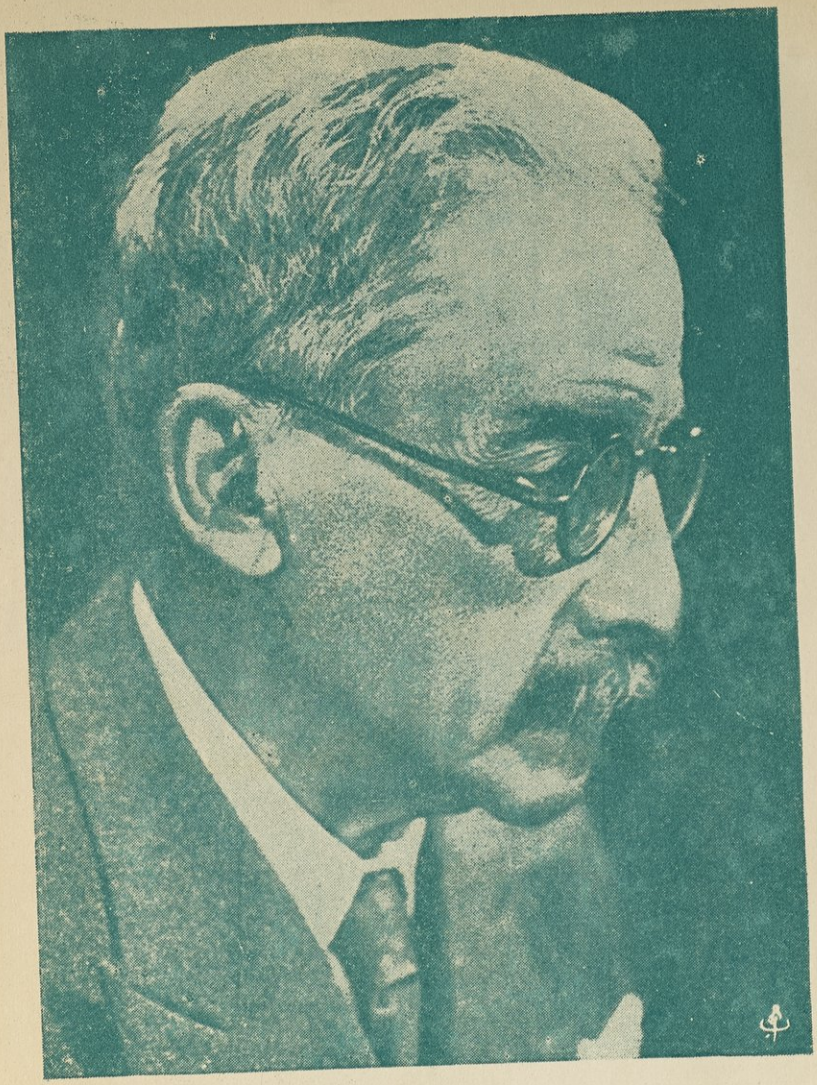

شاعِرُ العصرِ

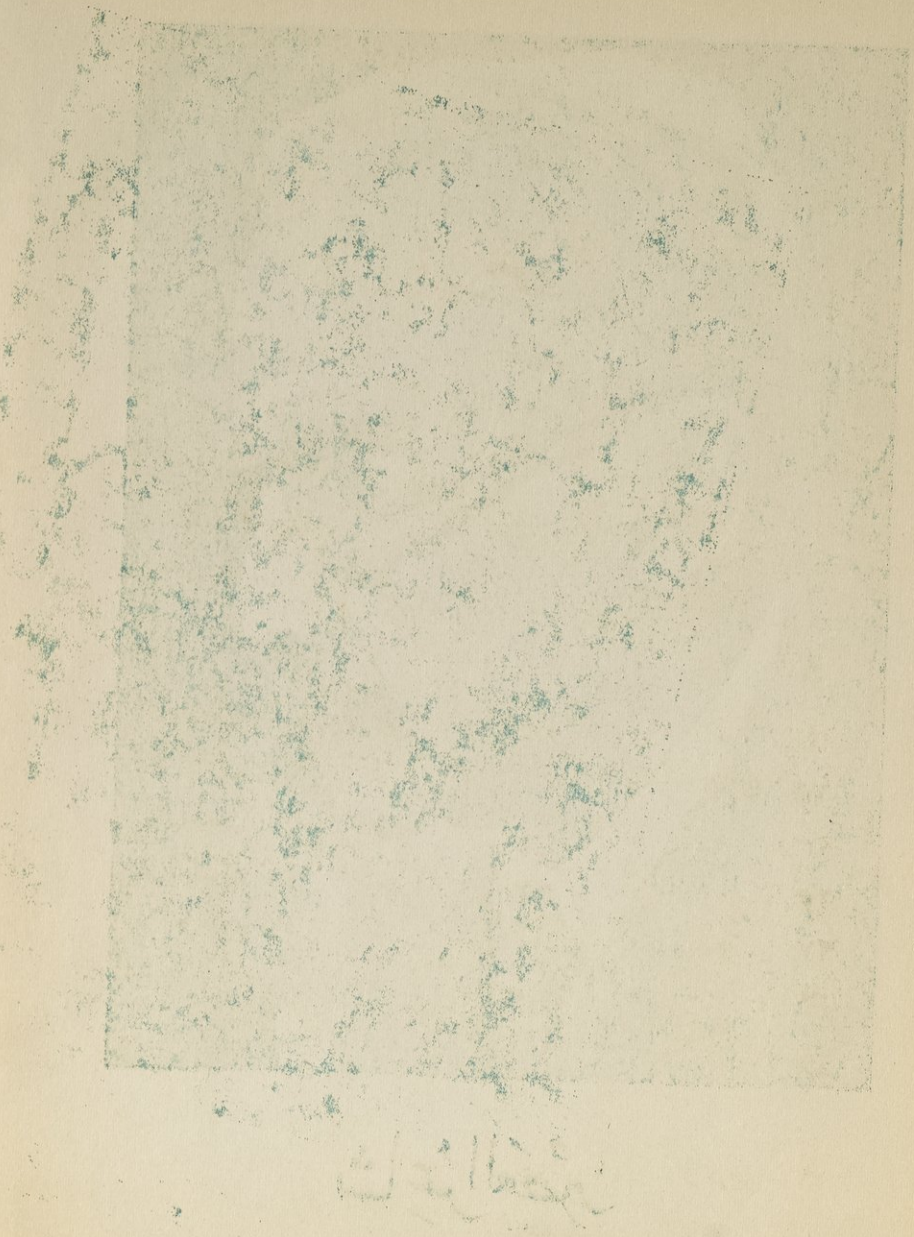

فهرس

رسم خليل مطران
رسم صلاح اللبابيدي
مقدمة بقلم الاستاذ اللبابيدي ١
مدخل ٩
بين البرج العاجي والسوق ١٤
وظيفة الاديب ١٧
مخبرو الصحف ٢٣
أوهام وافيون ٢٥
الاديب في السوق ٢٧
بيغاوات ٢٩
للتاريخ
وراثـــة – ٣٥ بيئة – ٣٩
في بعلبـــك – ٤٢ . في زحلة – ٤٣ . في بيروت – ٤٤ . في باريس – ٤٦
في الاسكندرية – ٤٨ . في القاهرة – ٤٩
كذكرى – صورة ٥٤

NOV 1 1954 MB

شاعر التجديد

بين يدي البحث ٥٩
اضواء على الشعر العربي ٦٢
وحدة الموضوع ٧٦
موضوعية ٨٥
ملاحم ٩٠
اغراض جديدة ٩٥
عواطف راقية ١٠٠
الطبيعة : كائنات مفكرة ١٠٩
دراما ١١٥
خلاصة التجديد ١٢٦

شاعر الحرية

حرية وحرية ١٢٩
قائد حرية ١٣٠
صور من التاريخ ١٣٢
برر جهر – نيرون – الاهرام .
صور من الواقع ١٤٧
فتاة الجبل الأسود – حرب لاعادلة ولامتعادلة – عتاب واستصراخ .
الخاتمة ١٦١

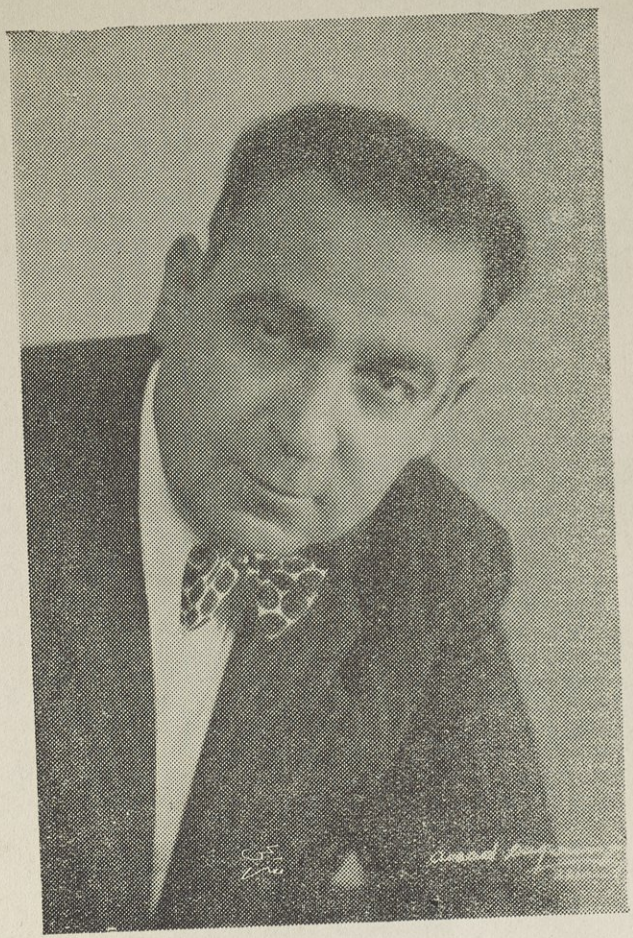

الشاعر المجدّد أبو ليلى

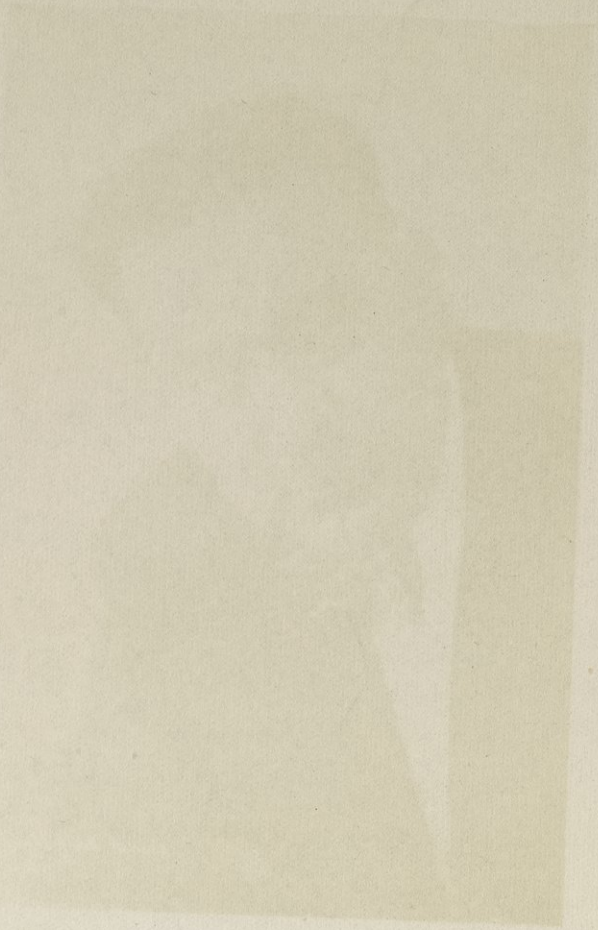

مقدمة

لقد تفضل الأديب الشاعر صلاح اللبابيدي ، فشاركني بعض رأيي في الشاعر الخالد ، خليل مطران ، فللأديب الفاضل تحية الود والاعجاب والاحترام .

« المؤلف »

•

تتزاحم الاتفاقات في حياتي الادبية والعملية تزاحماً عجيباً ومنها ما يجمع الاثنين معاً ؛ وها اني اقتصر على واحدة هي احدثها جميعاً ، ولن تكون الاخيرة منها ، فلا يزال في العمر متسع ؛ فان لاح لي ضيق منه ولم يعاجلني بحرّ أكفانه رويتها جميعاً تنفيساً لهواجسي ، ولو كانت بليـة على القارئين ، اما حكاية اقرب الاوجاع أو أحدث الاتفاقات فهي اني مللت الحياة في بيروت فهجرتها هجر عاشق لمعشوق اثني عشر عاما ، قضيت منها تسعة في بعلبك عانيت فيها الامرين والابيضين . فما ان رأيت الفراق ملتهماً لما يقارب ربع العمر حتى هزني الشوق القديم وما تعزيت عنه ؛ فشددت أمتعتي ببسطي وارتبطت السيارة لترجع بنا من مدينة الشمس ، الى مدينة القمر والبحر والعلم والادب والسينما والحانات وكل شيء ...

وقد فاتني ان اذكر غير مبالغ بان سني الطوال في ظلال اعمدة جوبيتر، كانت أجف من احجارهـا . ولولا أويقات قضيتهـا مـع ميشال طراد شاعر الورد والندى . لما عرف لساني الشعر ولما نعمت اذني بانغامه . وقد يكون ذلك من الدوافع الجوهرية التي ايقظت فيّ الحنـين الى مرضعتي الاولى . أليس عجيباً بعـد ذلك أن يطرق بابي في ليلة من ليالي بعلبك الاخيرات المحاميان الصديقان شفيق مرتضى، وصاحب هذا الكتاب ؟ فقلت ما قدما الا لحاجة المحامين من الاداريين ؟ وما طالت زورتهما حتى أسفرت عن جلسة ادبيـة هادئة تـلا عليّ فيهـا الاديب النجيب مدخل هذا الكتاب وقسما غير قليل منه . فنكأ ذكرى مازال قابعة في زاوية من اجمـل زوايا العمر، وطلبا إليّ بعد ذلك ان اسمعهما قصيدتي في رثاء الخليل ففعلت وما فارقاني الا وقد حملا وعداً بتقديم هذا الكتاب لقرائه وهل بعد ذلك من مطمع أدغدغ فيه أجمل الذكريات(١).

في كل ليلة من ليالي سنة الثلاثين بعد الالف والتسعمائة، كما يقولون، والسنين التي تلتها، كانت تضم مائدةٌ من موائد مقهى الصلح — ولا علاقة للسياسة في الامر — عصبـةٌ من أدباء بـيروت فيها من البستانيين ثلاث زهرات : كـرم وبطرس وادوار، والشاعر المحافظ أدباً ووفاء ميشال الجاهل، ومن الغصوبيين، شاعر العمق والحسن: يوسف، ومن الادباء المطربين، عمر الزعني . ومن الكرميين، كرم ملحم السيل الهادي المتدفق . ومن اللبابيديين صاحب هذه المقدمة . ولم ينقص هـذه العصبة من العامليين

(١) اتجهت النية، أول الأمر، الى الاشتراك مع الاستاذ المحامي شفيق مرتضى، في اصدار هذا الكتاب . ولكن ظروف الاستاذ الفاضل — قاتل الله السياسة — جعلتني انفرد بالعمل، فاقتضى ذكر ذلك . « المؤلف »

كامل شعيب شاعر الارتجال الاول . وكان واسطة العقد في هذه الحلقة الادبية ، عمر الفاخوري أخلص الادباء الأدب واكثرهم طرباً للفن واقدرهم على ابراز صوره . وكان طيب الله ثراه ، أول المتحزبين للخليل يفضله على جميع الشعراء المتأخرين ، ولولا ابو الطيب ، وابو النواس ، لقلنا حتى على المتقدمين منهم . وكان اكثرنا يرى ان لواء الشعر لأحمد شوقي ، لاينازعه فيه منازع . وما ان صدر ديوان شوقي الاول حتى كنت انتظره على أبواب الكتبيين فتلقفت اول نسخة منه لاشنف ادن عمر بها — اعتقاداً مني ان عمر لم يدرس شعر شوقي . وبعد ان قرأنا منه ماقرأنا طلب إليّ عمر ان اعيره الديوان ، فضحيت بدرتي الثمينة ، فعساه يهتدي الى سواء السبيل فينضم الينا ... ويكفي الله الادباء عربدة النقاش .

وفي اليوم الثاني أعاد لي الديوان وهو يقول « لقد اتعبني صاحبكم طوال الليل ، بعض التاريخ التي يتوكأ عليها فكانت كأنها تنهال على رأسي وجنبي فأرقتني !.» وانقطع بذلك آخر بصيص من أملي باقناع عمر ...

وبينما أتأبط ذراع الحبيب عمر الى مجلسنا الادبي ذات مساء اذا ببياعة الصحف في ساحة الشهداء تنادي بقصيدة جديدة لخليل مطران فتلقفها عمر تلقفي لديوان شوقي فاذا هي في رثاء احد المحامين المصريين وقد تولى الدفاع وهو مريض محموم عن احد الوطنيين المصريين فاشتد عليه الداء حتى سقط صريعاً في الجلسة :

ماموت أحمدَ ، حتف انف ، إنه للقتلُ في عقبى أشد جهاد

جلس عمر في وسط الحلقة مستقيما رافع الرأس زهوا بالفريدة الغالية وأخذ يتلوها علينا بصوته الجهوري الرصين ، والقائه العذب المتين ،

محاولا ان يزيد من روعتها في نفوسنا . وما ان اوغل في القصيدة حتى خمد صوته وتهدم على نفسه واستند الى كرسيه ، فلما أتم مايقارب الخمسين بيتاً منها — وهي قصيدة تربو على المئة — استوقفته طالباً شرحاً وتوضيحاً ، فعجز عن ارتجاله ، ومدّ القراءة فطوى قصيدته على مرارة ، وبه كآبة الجندي المندحر يعود الى مقره منقبض النفس موقراً باليأس ، وايتسم المعارضون — أعني الادباء — ابتسام المنتصرين !.

وفي الليلة التالية كان عمر اول الوافدين الى مائدة المقهى ، التي كلما رأيتها اليوم تطوف عليها صحون الحلوى رثيت لحالها بعد ما نعمت به من ادب وكؤوس !.

وما ان انتظم عقد الرفاق حتى عاد عمر الى زهو الامس ، متصلباً فخوراً واخذ يتلو القصيدة تلاوة فاهم لها يشرحها حينا بلسانه ، وحينا بيديه ، وحينا بعينيه ، معلقاً عليها موضحاً مايحتاج للتوضيح حتى اتمها فاذا بها تسبق في ادمغتنا نشوة الزحليّ في عروقنا ؛ فاستعدناه انشادها مراراً فكانت نقلنا طوال ذاك الليل ، وكانت فاتحة عهدنا بتفهم الخليل ودراسة شعره .

ايقظ هذه القضية في ذاكرتي ، على ضعفها ، قول الاستاذ جمال الدين في الصفحة السادسة والسبعين : « ان جمال شعر خليل مطران لايظهر من القراءة الاولى » الى ان يقول « ومن أجل كمال النقد الادبي أوصى أول الامر باعادة النظر اكثر من مرة في شعر مطران ، ليمكن اعطاء الحكم الصحيح في فن شاعر العصر » .

نعم ان شعر خليل مطران هو كما يقولون ليس عفو الخاطر وليست ابياته مردودة الصدور على الاعجاز ، لتدركه قبل اتمام تلاوته فتكون

القارىء والناظم معاً ؟ واي فضل للشاعر بعد ذلك ؟ . نعم ان شعر خليل مطران ليس الماء ينزلق في حلقومك ، بسرعة النفس الى رئتيك . ان شعر خليل مطران قطعة من الحلوى المعروكة تحتاج الى مضغ طويل لتذوق الفنّ في صنعها . أجـــل ، ان شعر خليل مطران ليس فخرا عرفته من غيره وشعرت به في نفسك ، وليس تاريخا مررت بـه في درسك لتسبق ناظمه الى فهمه ؛ ان شعر خليل مطران هو الفن الصافي والابتكار المعجز ، ومن يجاهد في تفهمه ليس مغبونا . ورب قائل يقول : ما هذا الشعر الذي يحتاج الى روية واجهاد لنفهمه ؟ ! . فالذنب ذنبنا في ذلك وليس على مطران ملامـة ؛ فخليل ليس مسؤولا عن عجز مداركنا العقلية وضعف ثقافتنا الفنية والأدبية . وأضيف الى قـول الاستـاذ جمال الدين الذي تقدم : ادرس شعر مطران وتفهمه مرة ليسهل عليك فهمه بعدها - فالالحن الموسيقي الذي تطرب له هـو لون قد ألفته . .

اذا قرأت هذا النقد التحليلي لشعر خليل مطران ، الذي اجاد المؤلف ايضاحه في اكثر نواحيه فانه يغريك بدرس عبقرية الخليل فلا تمر بقصيدة من قصائده اذا وقعت بين يديك دون ان تمعن فيها النظر وتقتلها درسا وتفهماً فان فعلت وتمليت من شعر الشاعر ، في مختلف اغراضه ، علمت ان نسابة شكسبير الى العائلة البشرية بأسرها ليس وقفا على الشاعر الانكليزي الكبير ، فخليل مطران شاعر مطلع القرن العشرين نسيب حبيب للعائلة البشرية فلم يترك ناحية من نواحيها الا الم بهـا ورسمها بريشة فنان ماهر ، وان فعلت فستعلم علم اليقين ان ما يقولونه عن عجز الشعر العربي عن اللحاق بشعر اليونان والرومان والفرس

والفرنجة ، ليس واقعيا ؛ فان خليل مطران وان يكن قد اسف في شعر المناسبات اسفافا تبرره اخلاقه وحرصه على شعور الناس المولعين به ؛ الا انه قد خلا الى نفسه واطلق جناحي فنه في كل سماء حتى سما بالشعر العربي عن أغراضه العارضة من مدح وقدح وحكم ورثاء وغزل وخمريات ، الى العامل في حقله ، والطائر في سمائه ، والورد في رياضه ، والناسك في صومعته ، والحاقد في انتقامه والظالم في احكامه ، يبدع في تصويرهم ويجيد في تحليلهم ويظهر لنا منهم ما لاتراه غير الاعين التي وهبها الله ، قـــوة تفوق قوى الابصار العادية . نعم ان خليل مطران قد خلف لنا شعراً نباهي به العالم باسره ، من « نيرون » الى « بزر جمهر » الى « فتاة الجبل الاسود » الى « رعمسيس الثاني » الى « جنازة في عرس » الى « فنجان قهوة » الى « هدايا العروس » وغيرها من بدائعه التي تضيق بشرحها المجلدات الضخام .

لقد درس صاحب هـذا الكتـاب شعر مطران درساً مستفيضاً ؛ واحبه حباً جمّا ، حتى بالغ في الاعجاب مبالغة لايرضاها الاخلاص للادب؛ فعند بحثه الوحدة الفنية قال : « ان خليل مطران اول من وفاها حقها من العرب - وبشيء من الغلو - وآخر من وفاها ذلك » هذا اندفاع يفوق الحد المطلوب ، في دراسة الادب ؛ فلو سلمنا جدلا بذلك فنحن نعلم علم اليوم والامس قبله ولكنا عمي عن علم ما في غد (١) وقد تمادى هذا الاغراق الفكري الثابت اليوم في صديقنا النجيب ، الى قوله : « بان وصف المتنبي لمعارك سيف الدولة يغيم وراء ستار كثيف من مدح سيف الدولة . » مالنا ولابي الطيب ياأخي نجيب ، فانا اشد تحزبا له من تحزبي وتحزبك لمطران ، ودخولنا

---

(١) انظر الصفحة ١٧ من هذا الكتاب - الملاحظة الاولى . « المؤلف »

في هذا الموضوع يطيل علينا الطريق فنحن في معرض الموازنة مع شوقي ورفاقه من شعراء عصر الانحطاط الادبي — لاأقول الانبعاث — ولا نرضى بشعر امام شعراء العرب مقارنة الا بشكسبير واضرابه ولئن شط قلمك في هذه المقارنة فمن الحق ان اقول بانك أجدت اجادة بالغة في تحليل قصيدة (يانا) التي يصف بها الشاعر معركة دارت بين نابليون وبين البروسيين اجادة تغفر لك ما تقدم وما تأخر ! .

هذا وقد وقف المؤلف قلمه على محاسن شعر الخليل فهو يرى في رديئه النادر حسنات . وفي سقطاته ولو ظهرت طيبات ، ومن ذلك روايته لقصيدة « الطفل وامه » بالاعجاب المتناهي ، على ان هذه القصيدة ليست من بدائع شعر الخليل ولا تنم عن شاعريته الحقة وصفاته العالية ، وقد تكون منظومة عن لسان احد الاصدقاء . فخليل لايرفض لاحد طلباً في ماله اوفي شعره فهما عنده مبذولان لكل طالب « فعاطفة الخليل هي — كما يقول المؤلف — كفكره تتصف بالعمق والاتساع ، فتهدف على الغالب الى غرض توجيهي نبيل اومثال انساني كريم . » [صفحة ١٠٢] هذا هو خليل مطران كما عرفناه وليس صاحب القصيدة التي ذكرناها . (١)

انا لاقول ان المؤلف على سعة ادبه وعمق بحثه وفى خليل مطران حقه من التحليل ولكنه قد رسم لنا طريقا اذا سار عليها الباحثون من بعده أمنوا العثار ، ووصلوا إلى الحقيقة . ولا ازعم انني قد وفيت هذا الاثر الادبي حقه من النقد ، ولكني قد قدمته لقارئيه ببحث سطحي ،

---

(١) انظر القصيدة في الصفحة ٩٨،٩٩ من هذا الكتاب . « المؤلف »

فهو جدير انْ يتحدث عن نفسه بما فيه من جهد، وبحوث قيمة، فواضعه اذا لم يلم بشعر الخليل الماما تاما الا انه الم بدراسة شاعريته وتاريخه الماما يكاد يبلغ حد الكمال، فما يأتي القارىء على ما بين دفتي هـذا الكتاب الا ويتحقق تحقيقا تاما، ان خليل مطران شاعر عالمي لاينتسب الى مدرسة من مدارس الشعر المجازية اوالواقعية اوالبرناسية اوالرمزية اوغيرها فجميعها تنطوي في غير تكلف ولا عناء تحت رايته، وعلينا ان نسمي هـذه المدرسة الجامعة «مـدرسة مطرانية!..»

وبعد فان هذا الكتاب تكريم لخليل مطران فوق كل تكريم لقيه في حياته وزفّ اليه بعد مماتـه، وان فيه من الجرأة الادبية على المألوف الشائع في طباع الناس من حبهم الأدب السهل ما ليس بعده جرأة، وفيه حملة شعواء على من يزدرون الشعر العربي ولا يقدرون ما فيه من جمال فني فقد آن لنا ان نعنى في تغذية ارواحنا، وما يكون ذلك الا بدرس شعرائنا، والشاعر كما حدثتني ليلاي نقلا عن الشاعر الانكليزي وردزورث في مقدمة لديوان الاغاني الشعبية:

«رغم اختلاف الارض والاجواء واللغة والتصرفات والقوانين والعادات ورغم الاشياء التي تتوارى في صمت الذاكرة وتنهدم بالجبروت رغم كل ذلك يصل الشاعر بالعاطفة والثقافة مملكة المجتمع الانساني، الممتدة على الارض مدى الازمان فالشعر اول وآخر العلوم كلها والشعر كعاطفة الانسان، حي لايموت!»

نعم هذا هو خليل مطران فحق علينا ومتعة لارواحنا أن نعرفه...

ابو ليلى

مدخل

... نحن في مطلع القرن التاسع عشر ، وبلاد العرب تغفو على مصيبتين : السلطنة الكبرى ، بمشانقها ، وطغاتها وانكشاريها ؛ ونظام الاقطاع الشائخ ، بانحطاطه ، وانحلاله ، وتناقضاته ؛ ونكاد نميز في العالم الذي يتكلم العربية ، طبقتين : أولاهما : تستأثر بالسلطان والقلم والأرض ، وهي « غاية » في النظام الاقطاعي ، وثانيتهما : تحتكر العبودية والجهل والفقر ، وهي « وسيلة » في ذاك النظام عينه .

ولا تسل عن حالة الاقتصاد ، في هذا العصر الذي نؤرخه ، فلك ان تعود على جناح التذكر ، إلى الحالة المؤسفة التي تخبطت فيها الطبقات الفرنسية ، قبيل ثورتها الكبرى ، ثم تخفض بصرك درجات في سلم الاقتصاد العام ، فتقع على حقيقة هذا العصر .

وإن سألت عن حال الفكر فلا تنس أن نظام السخرة ، من مقوماته — وان شئت ، من نتاجه — انقطاع اتصال الفكر بالشعب على انه بقي شيء من الادب الرخيص ، غاية الرخص ، يجوس خلال القصور والصوامع ، ويدور في معظمه ، حول تملق ولي أمر ، أو تزلف رجل دين ، أو تاريخ ولادة ، أو وفاة ، أو البكاء على ماض

رائع ، أو هجاء زمن بخوؤن ! . . كل ذلك بلغة ركيكة ، وأسلوب غاية في السقم . . .

وبدأ الشرق يتململ ! . .

فأمواج المتوسط التي غسلت ادران البوربون عن شواطىء فرنسا ، أخذت تتكسر على نفسها ، وتتدافع لتصافح شطئان الشرق الغافي على لحون الجمود واللامبالاة والعبودية ، والايمان بالغيب والانسياق وراء القضاء والقدر ، وبدأت نسمات الحرية المعطرة بعبق الدم المهراق ، المزوج بدخان البارود المنطلق عند أسوار الباستيل ، تهب بعنف وعصف ، لتفتح أجفان الالى كان أجدادهم نهلوا اثداء الحرية ، ورضعوا ألبان السيوف ! . .

لقد نام الفكر العربي ، نيف وخمسة قرون ، ثم انتفض ليعود سيرته الأولى ، وأخذت بوادر الحياة — نعنى الحرية — سبيلها الى موطن المنكوبين باحفاد تيمورلنك ، وهولاكو ، وجنكيزخان ، وأبناء عثمان ، ومماليكهم ، عن اكثر من طريق :

فهذا طريق الغرب ، تنساب فيه حملة بونابرت جاعلة نتاج الثورة الكبرى ، وسيلة جذابة ، مغرية ، لتبديل استعمار تركي بآخر فرنسي ونشط خلالها ، كثير من المستشرقين عكفوا على آثار الشرق يوسعونها دراسة وتمحيصاً ، وبالرغم مما في هذا العكوف ، من طابع استعماري فقد أفاد منه الشرق ، مالاينسى .

وهذه ربوع الشرق ، شرق أوربا ، تنفخ فيها ريح الثورة ،

فينفجر برميل البارود ، في سلسلة من الثورات البلقانية الاستقلالية ، وينفذ شيء من اللهب المستعر ، الى صميم قلوب ابناء عثمان أنفسهم ، فتنشأ الحركة الدستورية على يد مدحت باشا ، ثم حزب الاتحاد والترقي ، أو تركيا الفتاة ، على يد عزت باشا . وقد تكون هذه الثورة الفكرية ، والتفتح العثماني الجديد ، غير ملائمين للمصلحة العربية ، بيد انهما بالاضافة الى الفكر الحر ، فقد أفاد منهما أحرار العرب ، مالا ينكرون ...

على ان تأثر الترك لم يكن سياسياً وحسب ، بل امتاز ، الى ذلك بناحيته الادبية الخالصة فقد تماثل الأدب التركي واندفع بتطور ملحوظ من حيث اسلوبه ، وموضوعه ، على يد نامق كمال ، وشناسي ، وافاد الادب العربي ، من التطور الحادث ، الشيء الكثير ، نتيجة منطقية لامتداد نفوذ اللغة التركية ، على العالم العربي .

ويهز الفتح النابوليوني ، جو الجمود والقناعة ، والايمان بالغيب في دنيا العرب ، فتنطلق مصر ؛ ايام مؤسس نهضتها الكبرى ؛ محمد علي باشا ، في وثبة جبارة تتصف بكثير من الامتياز والتفوق ؛ فنشأ عن ذلك ؛ طريق ثالث ، تنساب فيه قوافل البعوث المصرية ، راجعة من ديار الغرب ، تهديها أنوار الفكر الحر ، والمعرفة الواعية ، والحرية المتوثبة .

أما لبنان ، الطريق الرابع ـ او قل الاول ـ للحرية ، ففضله على الثقافة والفكر ، والنهضة عموما ، فقد سرى مسرى النور ، اذ ان اتصالاته القديمة باوروبا ؛ عن طريق الحروب الصليبية ؛ وارتباط

الهيئات الدينية المسيحية بالكنيسة الغربية ؛ وامتيازات اللبنانيين السياسية كل ذلك ساعد على انتشار المؤسسات العلمية والطبية ، والقنصلية ، فسبق اللبنانيون جيرانهم في مضمار الثقافة ، ثم تحولوا الى وادي النيل حيث اشعوا ، صحافة وأدباً وعلماً ، فكانوا للنهضة ، كالبلسم للجريح .

ان هذا التطور الضخم ، سرعان ما نبه الشعب العربي الى حقه السليب ، وسرعان ما يتطلع الى استرجاعه ، فما لبثت كتابات اديب اسحق ، وجمال الدين الافغاني ، وشبلي شميل ، ومصطفى كامل وقاسم امين ، والكواكبي ، واحمد فارس الشدياق ، وعدة اسماء ادبية فكرية ، اخرى ، ان نفذت الى جماهير الناس . كما اخذت قصائد ولي الدين يكن ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران واحمد شوقي ، واسماعيل صبري ، ومحمود سامي البارودي ، والزهاوي ، والرصافي وغيرهم وغيرهم ، تلامس مواطن الاحساس ، من اوتار هذه القلوب المتفتحة الى حياة الحرية ، المتعطشة الى نيل الحقوق .

ولم تكن الافكار الحرة غريبة عن ارض العرب ، كما ان هذه الافكار نفسها لم تكن كلها وليدة هذا العصر ، اذ لها جذور في تاريخ العرب ، عميقة كالتاريخ نفسه ، فالنفس العربية ، أبنة الصحراء وصفاء السماء ، وربيبة الديانة الاسلامية السمحاء ، من اعذب امانيها بله ، اولى مقوماتها ، طلب المعرفة ، والفناء في سبيل حرية الفكر .

والنفوس التي انطوت على النضوب والفراغ ، نيف وخمسمئة سنة ماعتمت ان اكتشفت منابع النور ، تشع عن ارض الغرب ، فأخذت

طريقها اليها ، وترجمت الى العربية آثار أدباء وفنانين لهم وزنهم في تاريخ الحضارة والفكر ، كما غزت الحقوق الغربية اذهان الشرقيين ثم وثبت الهمم الى تعلم اللغات الاجنبية ، والتثقف بها ثقافة عالية ، وبذلك انصبت مجار ثقافية كثيرة في الحوض العام للفكر العربي الجديد .

وقبيل ان تطل الحرب العالمية الاولى بوجهها الراعب الشاحب ، كانت مظاهر الفوضى والتبلبل ، في الادب ، الذي يعنينا ، على الاخص امره ، وكانت المشادة بين المقلدين الذين رغبوا بالرجوع الى ينابيع العرب القديمة ، في الادب والشعر ، وبين المجددين ، الذين اقبلوا على العب من ثقافات الغرب ، وحضارته وعلومه ، كانت تلك المظاهر ، تلقي ضوءاً يصلح معه التنبوء ، على ان تطوراً خطيراً ، سيطرأ على الادب العربي ، وان تلك المجاري الثقافية المنصبة في حوض الفكر العربي العام ، لن تقف عند حد جمودها ، بل ستؤلف بشكل حتمي تيارات مصطرعة ، جارفة في المستقبل القريب .

وتضرم شهوة الفتوح ، نيران المجزرة العالمية الاولى ، فتدوم سنوات خمسا ، تكاد انفاس الشعوب تزهق تحت كلكلها ، وما تضع اوزارها حتى يصطدم العرب في اقطارهم المختلفة ـ وكانت مصر ، قد سبقتهم الى ذلك — بخيبة امل ، مريرة ، فقد نهضت الامة العربية ، بعد ان جرر الترك ظلال تعسفهم الفوضوي عنها ، لتقع فريسة التعسف والظلم المنظم :

وقد كان ذاك الظلم فوضى ، فنظمت
حواشيه حتى عاد ظلما منظما

وتضطرم النفوس وتتلظى ، ويشتد الوعي الشعبي يقظة ، والمعقولات الجديدة تركزاً ، وتتبدل القيم القديمة ، لتحل محلها ، اخرى مستجدة مستمدة من حياة الشعب نفسه ، وهكذا اخذت هذه القيم والمعقولات والمثل تنطبع على النفوس الاكثر حساسية في الامة ، اعني الادباء ، لتصدر عنهم اثاراً أدبية رائعة نابضة بالحياة ، مشعشعة بالقوة والحرية والمطالبة الشديدة بالحقوق المهضومة ، والكرامات السليبة .

ومنطقي غاية المنطق ، بدهي غاية البداهة ، ان تبدأ الخصومات الادبية تذر قرنها بين الادباء ، وتميز كل تلك الخصومات بظاهرتين بارزتين .

الاولى : تتعلق بماهية الادب ، ومفهومه ، والثانية : بطريقته وشكله .

بين البرج العاجي ، والسوق :

تياران عنيفان ، في خضم الادب ، يصطرعان في اعقاب المجزرة العالمية الاولى : ادباء يرون ان الاديب ينبغي له ، ان يفرغ لنفسه وان يعبر عن تجاربه الفردية ، وممارساته الشخصية والا ينظر الى الجماهير المتحركة الا كنظره الى الاشياء الجامدة ، والطبيعة الناطقة او الصامتة ، كلها تصلح مادة لفنه ؛ وبرزت نظرية : الفن لذات الفن ، ونظرية الأدب هدية الاديب ، الى الاديب ، لاهدية الاديب الى الشعب ، وتعابير من أمثال : الادب فن التعبير ، والشعر تعبير عن أحاسيس ومشاعر ، وخلجات خاصة ...

وأدباء آخرون ، فرضوا على الأديب النزول الى السوق ، أو

الحقل ، ليشارك الناس مشاعرهم ، وآمالهم ، وآلامهم ، فيرسم المثل العليا لهم ، ويوجههم في طريق الكمال الانساني ، فيكون إلى جانب التطور المادي ، أداة فعالة في تقدمهم ، وتفتيح آفاق أفكارهم ، فظهرت نظرية الادب التوجيهي ، والادب في خدمة المجتمع ، وأمثال هـذه التعابير : الأديب في السوق ، وآن للأدباء أن يصنعوا التاريخ ، بدلاً من أن يسجلوه . . .هذه هي الظاهرة الاولى ، في النزاع :

أما الظاهرة الثانية ، المتصلة بالطريقة والشكل ، فهناك ادباء ، لم يفارقوا ينابيع الأدب العربي ، ولم يتفلتوا من ضغط العصور القديمة ، وأمعنوا في تصوير عصور الامويين والعباسيين ،أو الجاهليين ،قبلهما ؛ وأبوا إلا مشاركة القدامى في اسلوبهم الأدبي ، وطريقتهم في التعبير ، وموضوعاتهم ، وهياكل أثارهم الشعرية ، وجوهم الفني ، وذهب بهم التقليد حد الغرابة ، فوصفوا عصور التاريخ العربي أدق وصف ، ورسومه وأطلاله ، وما كان ينبض فيه من ظلال وأفياء ، ويطبعه من أشكال وألوان :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي،في الاشهر الحرم

أكاد أجزم ، أن صاحبنا شوقي ، ماعرف شيئاً عن مواقع الحجاز ، الا ماجاءه عن طريق شيوخنا ،في الشعر ، وألا كيف يسيغ ، وهو ابن الاسكندرية والقاهرة ، وشواطيء البوسفور والدردنيل ، وباريس ولندن ، واكثر مدن الاندلس ، ومدن أخرى كثيرة ، البقاء لحظة ، في تلك المواقع المرمضة ، التي يكاد يذهل

فيها الجن ، من شدة الحر ، وفرط التلظي ؟. أما الريم ، وأما سفك الدم ، وأما الاشهر الحرم ، فالظاهر أنها من مستلزمات جو الحجاز ، وبعد فالقصيدة في مدح الرسول الكريم ، فلا معدى عن السبح في بحر هذه الألفاظ ، التي لاشيء تحتها .

وفريق آخر ، اشتق فنه من الحياة الواقعة ، التي تحيط به ، ومن أنوار الحضارة المتألقة امام عينيه ، ومن صخب الحياة المجلجلة في اذنيه ، وعكف على أدباء الغرب ، ومدارسهم الثقافية والشعرية ، يوسعها عباً وتمحيصاً ، وتتلمذ على ما كتب وترجم من هذه المدارس ؛ فكان اللجوء الى الوضوح والابانة في الاساليب ، فالخروج الى الضعف والابتزال حينا ، وكان اللجوء الى الرمز والايماء ، فالخروج الى الاحالة والاحاجي ، أحياناً كثيرة ، وهكذا صدق الزجال اللبناني في بعض هؤلاء حين قال :

وان ما فهمت ، لا تعتقد إنك غبي
اللى ناظمو مش فاهمو ، وحق النبي
الغاز مختومي برصد ، لازم لها ،
ضرّاب رمل ، يمّا منجم مغربي

•

واللي كلامو . شعر رمزي معظمو
وبيريد إنّا نستفيد ونفهمو
من بعد ما يلقي كلامو عالحضور
يكلف خاطرو ويقوم يترجمو ...

وظيفة الأديب :

لابد ، ونحن في مجال ، محاولة تحديد وظيفة الاديب ، من ابداء ملاحظتين ، الاولى عابرة ، والثانية ، بشيء من التفصيل . أما الأولى ، فالتذكير بنسبية الحقائق ، واختلافها تبعاً للمكان والزمان ، وظروف حياة السكان ، فما يصح كونه ، فضيلة ، في زمن ، أو عند فئة من الناس ، قد لا يصح اعتباره كذلك ، في زمن آخر ، أو عند فئة أخرى من الناس ، أعني أن المبادئ والأفكار والتعاريف ، او قل ، التقاليد والعادات والاعراف ؛ ليست ولا ينبغي لها أن توسم بسمة الاطلاق ، أو أن توصف بصفة الاستقرار ، ذلك أنها كالأحياء والحاجات ، تخضع لنظام التحول والتبدل ، وتسير وفقاً لضرورات الحياة المادية ، ومقتضيات الظروف الاجتماعية العامة .

وأما الملاحظة الثانية ، فتتناول هذه الاسطورة القائمة في بعض الأذهان ، والتي تهدف فصل الشرق عن حضارة الغرب ، والمنطوية على كثير من الفراغ والنضوب ، اذ تزعم ان هذا يصلح في الغرب ، ولا يصلح في الشرق ، وأن ذاك ينبغي هنا ، ولا ينبغي هناك .. الى آخر المعزوفة الجوفاء .

أنا أشعر أن كروية الارض ، مثلاً ، تبطل ان يكون الشرق شرقاً ، والغرب غرباً ، وأذكر أن سكان اوروبا اليوم ، هم من قبائل الشرق ، صميم الشرق ، التي كانت تضرب على شواطئ قزوين قديماً . وهجرات الشعوب ، عبر القارات ، وتمازج السكان ، واختلاط الحضارات ، وتطور اسباب الاتصالات بين مختلف الاقطار والأنحاء ،

في القرن العشرين ، تبطل ، ان يبقى ، على الاقل ، الشرق شرقاً ، والغرب غرباً ؛ ومدنية اليوم في الغرب ، ليست صنيع أوروبا وحدها ، بل هي صنيع الانسانية كلها ، صنيع شعوب الانسانية ، قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، وان ما فيها من ارتقاء العلوم والفنون والآداب ، ليس الا نتيجة لتمازج الحضارات ، واختلاط وتلاقح المدنيات ، الى جانب الثورة الصناعية الكبرى ، وازدياد الانتاج ووسائله في القرن التاسع عشر ؛ ولذلك فالعب من مناهل ، هذه المدنية الدافقة ، وقطف مافيها من الثمار النضيجة ، والاستضاءة بأنوارها المتألقة ، انما هو من حق جميع الشعوب على السواء ، انه ، كالابحار عرض المحيطات ، حق دولي عام .

ولست أنسى ، وأنا بسبيل هـذه الملاحظة ، من التنبيه الى ضرورة التفريق ، بين حضارة الغرب ، وبين استعمار الغرب ، فكثير من الأدباء عندنا ، اولئك الذين ، قد لا يحترفون تأجير اقلامهم ، عندما يبشرون بروحية الشرق ، ويعزفون عن مادية الغرب ، فلانهم ، على الغالب ، يغيب عنهم الفارق ، بين طبيعة المدنية ، وبين طبيعة الاستعمار ، ويخلطون بين احدث النظريات الناظمة لعلاقـة الانسان بالانسان ، وبين التكالب على الفتح والسيطرة ، واضرام نار الحروب ؛ وتحطيم الذرة بنظر هؤلاء السادة من الادباء حسني النية ؛ واستخدامها في الانشاء والتعمير ، كتحطيمها واستعمالها في التدمير والاحراق ، ونشر الموت ، وزرع الفوضى والرعب ، ان ادباء هذا وضعهم ، قد نفضوا يدهم من كل مايأتي من الغرب ، يستحقون ؛ ان ينفض الناس يدهم ، منهم ومن أدبهم الذي هو وسيلة خبيثة لاستمرار تحكم الغرب .

أما الآخرون من الأدباء ، الذين لاينكرون مافي المدنية الغربية من محاسن وقيم وفضائل ، ولكنهم مع ذلك يبشرون بالعزوف عنها ، لما تحمل من شرور وآثام ومفاسد ، (١) فمثلهم كمن يبشر بضرورة منع النسل دفعاً للفقر ، أو خوفاً على الأم من الآم الولادة ، أو كمن يبشر بعدم الوجود تلافياً لحسرة الموت !.

إن أدباء هذا وضعهم ، من حيث الركود ، والضيق العقلي ، ويرون في العقل الشرقي عقلاً غير قادر على الاصطفاء والتخير ، انما هم أعداء العقل الشرقي ، ويجب لهم كالآخرين التواري من ميدان الأدب والكتابه عموماً .

خلاصة القول ، أن أدبنا الحديث ، فكرنا الجديد ، لاينبغي له الانعزال والانكماش ، وانما حاجته الى الانطلاق والتوثب والأخذ بكل أسباب الحضارات القائمة مادمنا بسبيل بناء نهضتنا الجديدة .

بعد هذا استطيع الكلام عن وظيفة الأديب ، فأجزم أولاً بضرورة وجود رسالة للأديب ، ينبغي له ، كدت أقول ، يجب عليه أن يحسن اداءها ، وان الأدب وظيفة اجتماعية ، قوامها توجيه المجتمع نحو المثل العليا ، ونحو الاهداف التي هي قيم عليا ، في ذلك المجتمع ، لاأقول نحو مواطن الحق والخير والجمال ، حرصاً على كرامة هذه المفاهيم ، من اساءة تفسيرها ، وادعاء كل فريق أنها بجانبه — هذا ثانياً .

ولصوق الادب بحياة المجتمع ، تاريخياً لا احتاج في تأييده لكبير

---

(١) انظر — ان شئت — الدراسة الادبية النفيسة « نحو أدب جديد » بقلم شحادة الخوري .

جهد ، وحسب الباحث ان يقلب صفحات تاريخ الامم ، على وجه عام ، وتاريخنا العربي ، على وجه اخص ، ليرى ان الادب يقصر مهمته غالباً على خدمة الاجتماع . فسقراط مثلا ، فضل الموت على العزلة ، وكأس سقراط من التعابير التي لاتنسى ، وافلاطون خاض السياسة حتى اذنيه ، وجمهوريته اشهر من كأس سقراط ، وتشرد ارسطو في اواخر حياته بسبب السياسة امر مشهور ، دعك من سرد حوادث أدباء الغرب التي لاتنتهي .

اما عندنا ، فحسبنا التذكير ، بأمر القبيلة التي ينبغ فيها شاعر يقول ابن رشيق : « وكانت القبيلة من العرب ، اذا نبغ فيهم شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء ، يلعبن بالمزاهر ويتقرن بالدفوف ، كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لانه حماية لاعراضهم ، وذب عن احسابهم ، وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم .. »

والاديب الحق ، لاتجمل به العزلة في صومعة او برج ، ولا يليق به الانطواء في نفسه ، والانكماش عليها ، لينفرد بالتعبير عن نزواته فحسب ، واذ اقول ذلك ، لااقوله حرصاً على رأي ادعيه ؟ ولكن حرصاً على أدب ، نحن نريده عميقاً قويا ، جميلا .

وبعد ، فليس الشعر تعبيراً عن مشاعر واحساسات فحسب ، ولكنه قبل ، او فوق كل شيء ، اندماج عميق في الحياة ، ثم تعبير رائع عن هذا الاندماج العميق ، عند ذلك يأتي الاثر الفني منسحباً على الحياة ، وكأنه قطعة منها . . .

والحياة التي أريد للفنان ، ان ينغمس فيها ، ان يحياها ، ليست هي في الطبيعة وحسب ، وانما هي في المجتمع ايضاً . وعندي ان الجمال ، وهو التعبير البليغ ، عن كل ما في الحياة من اندفاع وحرية ، وسمو وخصب والذي يغني جميع ملكات النفس الانسانية بالعواطف والاخيلة والافكار ، والاحاسيس ، عندي ، أن الجمال الذي هو مبدع الحضارات ومربي النفوس والاذواق ، ان الجمال الذي هـــذا بعض امره لايظهر بليغاً رائعاً قوياً ، في شيء ، كما يظهر في انسان ، اعني في مجتمع . . .

ذاك ، أنه كلما ارتفع الكائن في سلم التطور ، كان ادعى للتعبير عن الجمال ، لانه يكون أبلغ واقوى في التعبير عن الحياة ، ولا شك ان الانسان هو كمال تطور الكائنات وتدرجها ، ولا شك ان المجتمع ، هو كمال تطور الانسان وتدرجه . وعن هذا كان الفنان الذي يربأ بفنه عن السطحية والضيق ، يحسن به ان ينغمس في صميم الحياة ، فيترف بالتجارب الرائعة ، فتخرج عن نفسه ، محبوكة بخيوط عبقريته ، اذا كان ثمة شيء من هذا ، موسومة برهافة أحاسيسه ، فاذا هي نتاج خالد تتغذى منه الاجيال .

واذا شاطرتني بعض الرأي الذي قدمت ، فلا تعجبن للسطحية والضيق ، اللذين يطبعان اثار جماعة الابراج والصوامع ، ولا تفتش عن العمق والاتساع في مؤلفاتهم ونفثات اقلامهم ، انك لن تعثر على شيء . فالاديب الذي يرى الى الحياة عن بعد ، دون الاندماج فيها سوف يبقى على السطح ، ويبقى ادبه معه على السطح ، ولو صار دمه ، من فرط ما قرأ ، حبراً ، وجلده ورقا ، رحم الله عمراً ، ومثله بالنسبة

للشاعر الذي نزل الى المعركة ، كمثل فرح المدعوين لعرس ، بالنسبة للعروس ، او كمثل النادبة المستأجرة ، بالنسبة الام الثاكل ، انه لايحسن ان يعبر عن اي حس ، وبالتالي فسوف لن يدخل هيكل الفن ، ولن يأكل من الذبيحة ! . .

وبعد ، فان جاز عبثاً ، القول ، بعزلة الاديب ، وحريته باختيار الوان الكلام ، اشكال الطعام ، فذلك ممكن بالنسبة للمجتمعات التي ادركت الكثير من الاستقلال الذاتي ، والتفكير الواعي ، والتربية الاجتماعية الراقية ، لما المناداة بمبدأ عزلة الاديب ، وفكرة الفن للفن والادب هدية الاديب للاديب ، في مجتمع تعصف في جذوره رياح الفوضى ، والاستعمار ، والاستثمار والجهالة ، فهذا ما لا يرضاه الفنان الجدير بهذه التسمية . . .

انا لست على رأي جدانوف القائل ان الاديب ليس حرا ان يرتفع الى برجه العاجي ، ولكنني اعتقد ان الاديب الذي يرتفع الى برجه العاجي ، حيث يجب ان يكون بين الناس ، انما هو انسان لاينبغي ان ينسب اليه شرف الادب ! . . .

وما دام المجتمع العربي اليوم ، يتخبط في بحران من الفوضى والجهل ، والنضال من اجل استكمال حريته ، كان القول بعزلة الاديب ، ضرباً من صرف النضال عن غايته ، والحد من فعاليته ، في هذا المجتمع الذي لايفتقر الى من يقوم فيه بمهمة التخريب والتهديم .

وسريان أمثال هذه المباديء العائقة سير التطور النضالي والاجتماعي نحو الكمال ، انما هو تجريد للفن من احلى وانبل صفاته الاجتماعية

وجعله منعدم الغاية والمغزى ، والفرار به نحو عالم ضيق ، من الممارسات الشخصية الضيقة ، والنزوات النفسية الصغيرة المحدودة .

والاديب العربي الذي ينصب نفسه للدفاع عن امثال هذه المباديء الدخيلة ، التي لم يفرضها حال العصر عندنا بعد ، والتي اعتقد ان المستعمر الاجنبي ما بشر بها ، الا لحرف النضال ضده ، عن طريقه القويم ، انما يجعل من نفسه شاء او ابى — عرف او جهل — مخربا في البناء الاجتماعي ، ومتآمراً على سلامة القضية الوطنية .

ياعجباً ! لهؤلاء الادباء الذين يزعمون لانفسهم هذا الاسم ، كيف يصمتون ، أبغض الصمت ، عن هذه الحوادث الاجتماعية الضخمة ، والكوارث القومية والسياسية العنيفة او عن بعض هـــذه الاعراس الوطنية الرائعة ، التي تصطرع كلها في ارض العرب ، وينهمكون في قصيدة غزل عاهر ، او غير عاهر ، او مقـــالة عن الحب في جزر هاواي ، او غير جزر هاواي . او يختلفون على صاحب اول مقـامة في الادب العربي ؟ . .

ابلغ الانحلال الخلقي ، والضيق العلمي ، والجفاف الذهني ، والعزلة الاجتماعية المخجلة ، هذا الحد المخزي ، عند بعض الكتـــاب ، الذين يفرض فيهم ، اداء رسالة المتنبي والمعري وابن المقفع ، وجبران والريحاني ومطران ؟ ؟ ...

مخبرو الصحف

وعندما أذهب ، الى ضرورة اتصال الاديب بالمجتمع ، وبالحيـاة

الواقعة ، لا اريد له أبداً ان يكتفي بنقل الام الشعب ، وآماله كما هي وحسب ، او ان يجعل من نفسه « مرآة صافية صقيلة رائعة - كما يقول الدكتور طه حسين - لحياة الشعب ، يرى فيها الشعب نفسه ، فيحب منها ما يحب ، ويبغض منها مايبغض ، ويدفعه حبه الى التماس الكمال ويدفعه بغضه الى التماس الاصلاح » (١)

لا استطيع ان افهم الادب ، ولا الاديب ، كما فهمه هذا المذهب الواقعي ، لان النقل المجرد ، لايعني شيئاً ، فالالة الفوتوغرافية اكثر دقة من الاديب في هذا النقل المجرد ، ومخبرو الصحف ، كلهم زعماء بتأدية هذه المهمة . افيجب حشرهم اذن ، في زمرة الادباء ؟ .

أجل ، يجب على الاديب ، ان يعكس للمجتمع أحداثه ، ولكن بعد ان تكون قد استحمت بماء تجاربه ، ومسحت بعطر فنـــه ، وتنشفت بنور عبقريته ، حتى ليكاد الشعب مثلا ، يحس الظلم في أثار الفنان ، هذا الفنان ، اكثر مما يحسه في الواقع .

لايصور الفنان التناقض في المجتمع ، كما هو هذا التناقض ، وانما يشعر الشعب بضرورة ازالة التناقض . لايصور الاديب للمجتمع حياته ، وانما يرسم له ان الحياة التي يحياها ، انما هي القسم الضئيل من الحق الذي يجب له ، من الحق الذي يجب ان يتلمس ! . .

ينبغي للفنان ، للاديب ذي الرسالة ، ان يرسم للشعب وجوداً آخر غير هـــذا الوجود ، اسمى من هذا الوجود ، وان يهيب بالشعب لتحقيق هذا الوجود ، الممكن الوجود ! . .

---

(١) الدكتور طه حسين - الكاتب المصري ، العدد الاول ص : ٢٧

اوهام وأفيون :

يقول « اوسكار وايلد » إن ثمة عالمين اثنين : أحدهما موجود ، ولا ينبغي لنا أن نتكلم عنه ، كي نراه ، لأننا فيه نعيش ، والآخر عالم الفن الذي ينبغي أن نتحدث عنه ، وإلاّ لم يكن له وجود » .

هذا العالم الذي دعا إليه وايلد ، هو إحياء فن الكذب الذي أضاعه أهله . وهذا الوجود الآخر الذي دعا إليه وايلد ، عرفه له « اتيان راي » بقوله : « اخبار بغير الواقع عن قصد ورويّة » . وقد نقل لوايلد هذا الرأي صاحب الفصول الأربعة ، إذ رأى أن غاية الفن إخراجنا إلى عالم غير عالمنا ، وكفاية حاجة أصيلة فينا ، هي الشوق الملح ، إلى الكذب (١)

والفن ، هو الكذب المحض ، كما وصفه عمر فاخوري في فصوله ، عن اتيان راي واوسكار وايلد ، يسكن عالماً مسحوراً لاتلج بابه الحقيقة المملة المحزنة ، بل فيه تسرح الأساطير والأوهام والخرافات ، والرموز ، حرة طليقة ، تحت سماوات خيالية ، تزينها الكواكب الدرية (٢)

ويزعم نيتشه — ونقل الكلام لايزال مستمراً — أن الأوهام والضلالات ، كانت ولم تزل القوى المغرية للانسان ، المسلية إياه ، وأن الحقائق ، كانت ولم تزل ، عاجزة عن تأدية هذه الخدمة الواجبة ، بتعزيته في أتراحه ، وتسليته في همومه ، وقد نشأ عن ذلك أن أصبحت أمس حاجة يحسها البشر ، حاجتهم إلى الفرار من الواقع الذي هم فيه ، والنجاة منه ، فكان خير ما وفقوا إليه ، من الوسائل ، لبلوغ هذه الغاية

---

(١) عمر فاخوري الفصول الاربعة - الصفحات العشر الأول

(٢) المصدر عينه .

« الحب والفن » وكلاهما يصدران عن الخيال — انتهى قول نيتشه .

ظاهر القول وباطنه ، يدل على أن مهمة الأديب ، الفرار بالناس عن عالمهم ، عالم الآلام والدماء والدموع ، الى عالم الخيال ، عالم الأوهام والضلات والجنون ، سمّه ما شئت .

ولست بحاجة ، إلى تفنيد كل الاسباب التي دفعت أوسكار وايلد إلى هذا الضرب من « التفكير الفني » الملتوي فحسبنا منها بعضها لأنها ستلقي نوراً على الموضوع :

لقد وقف اوسكار وايلد من العصر الفكتوري — عصر ازدهار البورجوازية الانكليزية ، وبدء تفسخ هذه البورجوازية ، على زمن فكتوريا الملكة — وقفة الباكي النادب أمجاد الهيلنية القديمة ، وحضارة هيلاس ، والزجاج الملون في الكاتدرائيات الجميلة ، ونعى عصر الآلة ، واتهمه أنه علة ضياع الشخصية في الناس ، وفي انتاجهم ؛ لم يقف وايلد من عصر البورجوازية المتفسخة وقفة الاشتراكي المتفائل المبشر بعالم أفضل ، كبعض أدباء جيله ، وإنما كان ذلك المتشائم المستسلم ، لايسعى الى تحسين هذا الواقع ، وإنما يحذره ، ويفر به إلى عالم الكذب .

لا ليس الأديب هو الذي يدعو إلى أمثال هذه العوالم ، ليس الأديب الذي يجعل الناس يعزفون عن واقعهم المؤلم ؛ الاديب ، الجدير بهذه التسمية ، هو الذي بقلمه يهز الواقع هزاً ، ويعصف به عصفاً ، ويخلص الناس منه ، لا أن يدعوهم ، الى عالم المورفين والجنون — عالم الأوهام والاضاليل .

وبعد ، فمن يكفل لنا — اذا كان رأينا في الأدب كذلك ، ألا يزعم

جماعة « كاس يني » و « تعميرات الحشيش » أنهم يرون خلال كؤوسهم وتعميراتهم قصائد أخلد ، ونشوات أروع ، من كل ما جادت به قرائح ، اوسكار وايلد ، وفردريك نيتشه ، وشوبنهور ، وسائر ادباء وفلاسفة التشاؤم والاضطراب المخلدين ! .

من يقنع هؤلاء ، ان عالماً يدعو إليه وايلد ، لايحققونه متى يشاءون ، وكيف يشاءون ، وبالثمن البخس الذي يريدون ؟ ! . .

الأديب في السوق

والمتتبع سير الاحداث الأدبية في بلاد العرب ، وفي مصر على الأخص ، يجد ان أدباء العزلة ، بدأوا يشعرون بانصراف الناس عنهم ، كما لمسوا عيانا ، وباليد ، أن الناقد الحديث عندنا ، وفي الغرب ، بدأ يقصر اهتمامه في النقد الأدبي المحض ، على ما للأثر الفني من صدى في الهيئة الاجتماعية ، بعد أن كان الناقد منذ مدة وجيزة ، لايلتمس إلا أدق ما يمتاز به المؤلف من الخصائص الفردية . إن الناقد الأدبي الحديث ينظر الكتاب ، كحدث اجتماعي خطير ، له أثره في المجتمع ، لا كعمل فردي خاص ، مهمته تأدية الممارسات الفردية الصرف .

واذ كان الأدب ، حاجة نفسية أصيلة ، كدت أزعم غريزة ، لايمكن سوى تطمينها ، وإذ كان أدباء العزلة غير قادرين على تطمين هذه الرغبة الراقية في النفوس العطشة ، او مواجهة هذه الحقيقة الكبرى ، على الأقل ، فان موجز الفقرة الحكمية ، التي أصدرها الشعب ضدهم ، تتلخص برد مؤلفاتهم الأدبية ، لتتصدر واجهات المكاتب ، إلى الأبد ، ثم انصرف الشعب بنفسه ، إلى تأدية رسالة الأدب ، فتمطى كليل امرىء

القيس وخلق أدباً ، لاينقصه من الترف الفني ، والرؤى الرائعة ، والتوجيه الصادق ، شيء .

لقد خلق الناس الأدب الذين هم بحاجة اليه ، وأعطى الشعب بحكمه عظة بالغة ، الأديب الذي يستهتر بتأدية رسالته .

أدرك ادباء العزلة كل ذلك ، أوشبّه لهم أنهم أدركوه ، وعرفوا ما يجب عليهم عمله ، أوشبه لهم أنهم عرفوه ، يجب النزول الى السوق ، يجب التطلع الى الناس ، فنزلوا وتطلعوا ، لا إخلاصاً للأدب ولا توجيها للشعب ، وانما خوفاً على أنفسهم من الضياع في زحمة الأحداث . ولكن ليتهم ما فعلوا ، لقد كان صمتهم خيراً من هذا الانتاج ! .

ألا رأيت اليهم عندما نادوا بالعزلة والانفصال ، أو عندما بشروا بنظرية الفن لذات الفن ، أو الادب هدية الاديب الى الاديب ، هل كانوا يصدرون عن حاجات صحيحة يتطلبها حال العصر ، أم أنهم كانوا صدى لطائفة من أدباء الغرب ؟.

لاشك ، ان تلك المدارس المتناقضة الكثيرة التي وجدت في الغرب انما كانت صوراً صحيحة ، وانعكاسات صافية ، للتناقضات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، والترف المادي ، والكبر القومي ، وأشياء أخر ، لو تتبعها الباحث ، لما أخطأها ، التي كانت تصطرع في الغرب .

أما عندنا في البلاد العربية ؛ فان شيئاً من التطور الاجتماعي والاقتصادي يكاد لم يحدث ، فالحالة الاقتصادية مثلاً ، هي نفسها منذ سنين طويلة ، فكاد ، في كل أقطار العروبة ، ترسف في نظام الاقطاع . أما حالتنا السياسية فيكاد كلنا لم يخلص بعد ، من نير التحكم الغريب ، اللهم إلا أخذنا بعين

الاعتبار، استقلال سوريا ولبنان. أما حالتنا الاجتماعيـة، فهي عود على بدء، تقاليد ملتوية، وعادات وأعراف جامدة، أكثرها يجب له التواري، الى الأبد. أعني القول، ان الاحداث عندنا لم تفرض على الادباء ألوان تفكيرهم، لأنهـا تكاد تكون متشابهـة، فمن أنى لهم كل ذلك المزيج العجيب من الخلط والتناقض؟. لاشك، قرأوه في الكتب، على أي حال مرحى لهم!. لكن بيت القصيد ليس هناك، والسوآل يجب أن يطرح هكذا: ان أدباء هذا وضعهم، لايعرفون سوى القراءة، عندما نزلوا الى السوق، أتراهم مستطيعين الخلوص، من ذاك الضرب في التفكير أم سيبقون مخلصين له؟ أتراهم مستطيعين التفلت من القيود التي فرضوها على أنفسهم، أم أنهم سيبقون مكبلين فيها؟ أتراهم عزوفين عن طرائقهم التي نزلت عليهم من الأعلى، أو من الأسفل — على لغة ابن الرومي — فأنزلوها من نفوسهم منزلة القداسة، أم تراهم زاهدين فيها، متحسسين عما يحسه الآخرون؟. سنرى ذلك قريباً..

بيغاوات!..

في العالم اليوم معسكران يصطرعان، معسكر الشعوب المتحفزة لطرح النير؛ ومعسكر الاستعمار الجاهد لاحكام وضع النير، أو ما هو شر من النير. وكل معسكر يقوم من جانبه، بحشد مفكريه وكتابه لتأييده والدفاع عنه، وقد تضامنت هناك، أقلام مع المدفع تزأر كعصفه وتتلظى كناره، وتبشر بسيطرة الدم والدينار والدولاب. وأقلام أخر، تضامنت مع طاقات الورد التي وارت شهداء الانسانية، في المجزرة الثانية ومع مناديل الدموع التي تمسح خدود الأم الثاكل، والأخت النادبة والزوج المفجوعة.. هذا في العالم.

أما عندنا فقد « قرأ » أدباؤنا أو بعض أدبائنا — عافاهم الله — أخبار المعركة ، فنزلوا من أبراجهم العاجية ، وسماواتهم اللازوردية ، الى السوق الى الناس ، وهم أمناء لتفكيرهم القديم ، يجررون ظلال ماضيهم الادبي ، وسطحيتهم المرهقة ، فتضامنت أقلامهم مع أعداء الشعب ، وتفرقوا شيعاً :

جماعة للتبشير بروحية الشرق ، مابرحوا يحرقون البخور ، لفك الأرصاد والطلاسم ، في هياكل المغيبات ، والمعميات ، والمعجزات ، وسائر مايفتهي بألف وتاء ، على لغة مارون عبود ، أستاذنا الكبير .

وجماعة للتبشير بالحرية (المطلقة) بما فيها احتكار القمح ، وتجويع الشعوب .

وآخرون لتمجيد العرق العربي ، بما فيه فحص الدم ، وطول الجمجمة ، وعرضها ، وعمقها ، ولون الوجه ، والعيون ، والبشرة الخ ... ثم الخروج الى نظرية التفوق ، على الطريقة الجرمانية المعروفة ..

وآخرون يبشرون بالحرب كوسيلة « طيبة » للحضارة ، أو لتخفيف النسل ، وتخليص الناس ، من آلام النزاع على العيش ، على طريقة مالتوس الراهب البروتستانتي !.

وجماعة أخيرة للدفاع عن الواقع ، او لقبول الواقع ، ولتمجيد غنى النفس ، والتزهيد بغنى المال ، على أسلوب عبد الوهاب في (محلاها عيشة الفلاح !.) أو على أسلوب أمير الشعراء :

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعب الماء

شعارهم فيما يكتبون ، ويشعرون ، ويغنون ، التخدير والتسكين و « ضرب » ابر المورفين !.

واذا أحسنت الظن ، وقلت أن أقلامهم غير مأجورة ، فلا استطيع أن

اخلصهم من لقب بيغاوات بريئة !. أجل ، فقد نزل جماعة العزلة ، الى السوق ، الى الجماهير ، ولكنهم لم يكونوا كالمخل ، الذي لايتدنى ، إلا ليرفع ، أو كالمحراث الذي لاينزل إلا ليخرج الخير والدفق والبركة ، بل كانوا استمراراً منطقياً لتفكيرهم اللامنطقي ، واجتراراً لما لاكته أقلامهم من قبل ، في ماضيهم غير المنطوي على شيء من الزهو والروعة .

لقد ألفوا بمجموعهم تياراً عنيفاً للدفاع عن الانظمة البالية مرة ، وللسبح في روحية الشرق مرة ، وللهجوم على الحرية ، وأدبائها مراراً ..

وأصبحت رسالتهم المقدسة الحجر على حرية الفكر ، ولهم في مكافحتها أساليب ، والهجوم فنون !. فألفاظ الاباحية ، والفوضوية ، والشيوعية ، والالحاد ، والزندقة ، والمادية ، والشعوبية وغيرها ، وغيرها ، يكيلونها كيلاً ويصبونها صباً ، على كل من لايدندن بأفكارهم المخربة أو لايسبح بحمد سادتهم من زعماء ، كل الزعماء : مقطعي الارض ، وأصحاب الثروة وعبيد العصا ، وتجار الرقيق ، وسماسرة الدين ، وأرباب البورصة ، وخدمة الاجنبي الخ ...

أما أسلوبهم في الكتابة ، ساعة يحملون على أدباء الحرية ، فتحس لكأنهم يكتبون بالمساس ، على لغة مارون عبود ، أو بعصا الرعيان ، على لغتي ..

مهلاً ياأشباه الادباء ، فوضع العصي بين العجلات ، ان عاق العربة عن السير ، فانه لن يعيق الارض عن الدوران !.

انني اذا أقرر كل ماتقدم ، وادافع عن كل ماتقدم ، لايسعني الا الاهابة بمفكرينا الاحرار للصمود في وجه التيار الاسود ، وللعزوف عن كل ما من شأنه صرفهم عن مهمتهم كأدباء يؤمنون بالمثل العليا ، ويدعون لها ، تلك المثل ، المستندة الى الواقع الحي ، والى التطور التاريخي الخالص .

وأذكر الادباء الآخرين ، الى أن التهاون بأمر الحرية ، والمهاودة في كفاح جلاديها ، لن يحرق بناره الشعب ، وحسب ، وانما سيكون الادباء أنفسهم ، أول ضحية لهذا التهاون ، إن ابن الشعب ، عندما يرى عدم ملاءمة الجو ، لأن يتنفس كما يريد ، يكتفي بالهمسة الخفيفة ، في بث شجوه ، بينما الاديب المهيأ فنياً ، لأن يكون أديباً ، فجو العبودية يرهقه ارهاقاً ، ويسحقه سحقاً ، ويكون هو نفسه ، أول ضحاياه .

ولما كنت أعتقد أن خليل مطران هو ، من هؤلاء الادباء ، الذين وفوا قسطهم ، وأدوا رسالتهم ، في عالم الشعر العربي ، أردت الى تقديمه ، الى أبناء وطني ، في شتى أقسام العروبة ، فنستلهم من أدبه المشرق ، مايصلح لنا زاداً في سفرنا المتعب ، ومرحلة نضالنا الشاقة ، وكله يصلح : أدبه ، وأخلاقه ، وشخصيته .

هذا همي : حشد القوى ، كل القوى ، في خدمة الحرية ، قضية العرب الكبرى ، في كل العصور !..

للتاريخ

وراثة -- بيئة — حياة — صورة

«.. في المعاودة وحدها، تاريخ تكون شخصيتي فقد كان هنالك عاملان يفعلان في نفسي ، شدة الحساسية ومحاسبة النفس، ومن هذين العاملين ، خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص .. » .

خليل مطران

•

لاشك أن العوامل التي تصنع الشخصية ، ثلاثة ، كما كنا نقرأ في علم النفس ، وهي عامل الدم ، وعامل البيئة ، والعامل الاجتماعي ، وعندي أن هذا الأخير هو الأهم في الموضوع ، ان لم يكن الموضوع كله ، بيد أن الطريقة العلمية القائمة على التحري والاستقراء من جهة ، والاحاطة والشمول ، من جهة أخرى ، تشدني الى الكلام عنها جميعاً بحسب ترتيبها الكلاسيكي المقبول .

وراثة

إن خليل مطران ، ينحدر من أسرة لبنانية ، ترق بجذورها الأولى ، إلى قبائل الأزد ، التي نجت بنفسها بعد سيل العرم ، وانهيار سد مأرب ، في اليمن ، فهاجرت الى الحجاز ، وفي أعالي تهامه ، نصبت خيامها على ماء يقال له غسان ، وطرحتها النوى مطارحها ، حتى نزلت مشارف الشام ، فاصطدمت بالضجاعمة وهم عرب من سليخ ، كانوا يحالفون قياصرة الروم ، وكان حصاد الحرب انتصار غسان ؛ وما لبثوا ان اطرحوا سلاح المعركة ، وانقلبوا إلى جيش من الزراع والبنائين ، فعمروا الأرض ، وغرسوا الحضارة ، واسسوا ملكاً مرهوب الجانب ، وكان اول ملوكهم جفنة بن عمرو . (١)

(١) سيد قريش — معروف الأرناؤوط ج ١ — ص ٧

وفي أواخر القرن الرابع للميلاد بدأ تدخل الرومان في شؤون هذه المملكة، فاعتنق الغسانيون الديانة المسيحية، وتمتنت صلاتهم بملوك بيزنطة، وخاصة الامبراطور جوستنيانوس قيصر؛ وملوكهم، مدحهم حسان، ونابغة بني ذبيان، واشهرهم عمرو بن الحارث، و فيه يقول النابغة :

علي لعمرو نعمة بعد نعمة — لوالده ليست بذات عقارب

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم — عصائب طير تهتدي بعصائب

وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، ومات في القسطنطينية، بعد أن كان قد اسلم وارتد، بسبب قصته المشهورة مع عمر بن الخطاب الخليفة الثاني.

وبعد الاسلام، كان من بطون غسان بطن يعرف « باولاد نسيم » حدث أن مات مطران مدينتهم في حوران، ولاسباب، لم يذكرها الثعالبي في يتيمته، هاجر فريق من هذه العائلة شرقاً إلى العراق، وأسلم، ومنهم شاعر زمانه، أبو محمد المطراني، وغاب هذا الفريق في تاريخ مسلمي العراق، وانحدر فريق آخر الى مشارف حمص — وما أكثر علاقات الغساسنة بتدمر وحمص — فنزلوها، ثم عرفوا بعد ذلك، بأبناء كحيل نسبة الى أحد أجدادهم، وكان اكحل العينين، وعائلة كحيل معروفة اليوم في حمص، وينزل بعض أفرادها في دمشق وتتمذهب بالارثوذكسيه

وفريق ثالث نزل بعلبك، وقد افتقد أسمه الجديد آل مطران، ورجع الى قديمه، فعرف بأولاد نسيم، من جديد، كما حقق بذلك عيسى أسكندر المعلوف في كتابة دواني القطوف، وهو أخبار مروية في الأسر الشرقية.

وفي اوائل القرن السابع عشر، حدث مرة اخرى، وقد يعيد التاريخ

نفسه ، أن سيم سنة ١٦٢٨، على بعلبك مطران ، من افراد اولاد نسيم ، اسمه ابيفانيوس ، وكان يقضي شؤون الناس في بيته ، فعرف بيته ، « ببيت المطران» والظاهر ان بعض افراد هذه العائلة ، لم يقف عند بعلبك وزحلة، بل هاجر الى جبل لبنان الاوسط ، اذ عرف دير «الحناوية » في الخنشارة راهبا هو الخوري يواكيم مطران ، رفيق الشماس المشهور عبد الله زاخر ، الذي كان اول من ادخل الطباعة الحجرية الى لبنان في اواخر القرن السادس عشر وتاريخ الدير مرتبط بتاريخ هذا الخوري يواكيم مطران

أما دين العائلة فالارثوذكسية ، حتى أواخر القرن السادس عشر ، تمارس طقوسها الدينية وفقاً لتقاليد الكنيسة الشرقيـة ، غير أنه نتيجة لضغط رجال الدين الارثوذكسي ، من جمـــاعة اليونان ، على العرب الارثوذكس ، أدى الى تمذهب عائلة مطران بالكثلكة ، وهكذا أصبحت تابعة للكنيسة الغربية .

ولأسرة مطران في التاريخ ، ذكر عطر ، بالفضل والعلم ، فقد ذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخه ، جملة من رجال هذه العائلة ، منهم سبيل مطران ، الذي عاش في العصر العباسي الأول ، وكان ألى جانب صديقه الفيلسوف الكندي ، من الذين عربوا المعارف والعلوم اليونانيـة ، عن اللغة السريانية ، الى لغة الضاد ؛ ومن الذين ذكرهم ابن ابي اصيبعة ، من أعلام عائله مطران : هبة الله مطران ، والياس مطران ، اللذين عاصرا صلاح الدين الايوبي ، والمقربين منه لعلمهما وفضلهما ، ومنهم اغاثون مطران رئيس أساقفة حوران ، وكان يتكلم ثمان عشرة لغة ، ومن أشهر الباحثين في الفلسفة ، كما نقـل ذلك رشيد مطران ، عن مخطوطة في لنـدرة ،

ومنهم عبد الله مطران وقد ساعد على تخليص المسيحيين من اضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمي (١) ،

في أواخر القرن الخامس عشر ، دانت مدينة بعلبك والبقاع ، لحكم أمراء الحرافشة ، وامتدت اقطاعيتهم هؤلاء ، نيفاً وخمسة قرون ، وقد ذكر الدكتور اسماعيل أحمد أدهم ، في كتابه ، خليل مطران ، شاعر العربية الابداعي ، نقلاً عن مخائيل موسى الوف البعلبكي ، في كتابه تاريخ بعلبك ، أن أمراء الحرافشة ، قد ضيقوا على آل مطران ، واضطروهم للهجرة والنزوح المستمر عن البلاد . ان هذا النقل عن ذاك الأصل ، وهم أو خطأ ينبغي اصلاحه ، فان امراء آل حرفوش ، وقد كانوا رجال سيف ، وجماعة إقطاع ، يصدفون عن صناعة القلم ، جعلوا من آل مطران ، وهم يحسنون الكتابة والتفكير ، كتبة لهم ومستشارين ؛ ولما نجحت حملة الدولة العثمانية ، ضد الحرافشة ، لخروجهم المستمر عليها ، كان لدى آل مطران ، الامكانيات المادية والعلمية الكافية لتبوء المكان اللائق بهم ، وما كان هذا ليحدث لولا تقريب الحرافشة الدائم لهم .

وحدث بعد نكبة النصارى في لبنان عام ١٨٦٠ ان انتدب حبيب افندي مطران ، من قبل الدولة العثمانية ، والدول الأجنبية مع من انتدب ، لتوزيع التعويضات على المنكوبين ، فأنعم على حبيب افندي بلقب الباشوية ، وهو أول من ظفر بها ، بين نصارى ولاية الشام ، وفضل حبيب مطران

أطلع المؤلف بواسطة السيد جودت مطران ، وبرفقة الأستاذ المحامي شفيق مرتضى على مخطوطة قديمة نقلها رشيد مطران ، عن مكتبة الفاتيكان ، فيها .. « أن عبد الله مطران الذي يرجع له الفضل في تخليص المسيحيين من آله الدروز [كذا]... » ويعود تاريخها لسنة ٩٨٥ م .

على تنظيم الادارة ، وضبط الأمن ، وحفظ حقوق المواطنين ، في بعلبك والبقاع ، غاية في الروعة .

والعائلة اليوم ، لاتوصف بالاقطاع ، وتحمل في ابرادهـا كثيراً من روعة الماضي ، العلمي والأدبي ، ويطبع أفرادها على العموم تربية اجتماعية راقية ، وأخلاق رصينة قوية ، ومقام في نفوس القوم لاينكر .

هذه لمحة عن العائلة التي انحدر منها شاعر العبقرية أسوقها بايجاز ، وانتقل الى بعلبك المدينة التي ولد وترعرع فيها الشاعر .

بيئته :

يختلط تاريخ بعلبك ، باختراع الحروف الهجائية في لبنان فكأنهـا والحضارة على موعد ؛ وذهب بعض المؤرخين الى أن أصلهـا لايرقى الى أبعد من الرومان ، وشك ان يكون فينيقياً ، بيد أن التحريات في السنتين الاخيرتين ، كشفت في أديم المعبد الروماني ، في البهو الكبير ، على آثار فينيقية ، كما عثر في الشمال الشرقي من المدينة على آثار يونانية ثابتة ، غاية في الابداع والاتقان ، تمثـل الاسكندر في داره ، بين رهط من حكماء اليونان ، وقد نقلت الى المتحف الوطني في العاصمة اللبنانية . وعلى ذلك فالمدينة تستقي من جذور عريقة في الحضارة الفينيقية ، واليونانية والرومانية .

ورد اسمهـا أول ماورد باسم (بعل بقموتو) وهي لفظة سريانيـة ، معناها اله البقاع ، ثم نقلت الى العربية باسم بعلبك ، في عهود الجاهلية البعيدة ، وورد ذكرها في شعر امرىء القيس ، وهو في طريقه الى بيزنطة :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبكِ عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا
وقد انكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص انكرا

كما أن اسمها، ورد، بمعلقة ابن كلثوم:

وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى في دمشق وقاسرينا

على أن المدينة، لاتشتهر اليوم بصناعة الخمور، شأنها في زمن ابن كلثوم، لأن جارتها، جارة الوادي، انفردت دونها بالشهرة، فالعرق الزحلي لايجارى، بشهادة أكثر اخواننا الدمشقيين!.

وقد ازدهرت مدينة بعلبك، في زمن الفتح الاسلامي، بصناعة النسيج، وكان ملوك أمية يباهون بنسيجها. وتأخرت، ككل شيء، في عهد بني عثمان، وتحاول استعادة بعض مجدها السليب.

تقع بعلبك في السفح الغربي لجبال القلمون، التي هي قسم من جبال لبنان الشرقية، وترتمي على التحديد عند اقدام قلعة موسى، فتكون بالنسبة لسهل البقاع، في القمة منه، ينبع عن يمينها نهر العاصي، أكبر انهار لبنان وسوريا، ويجري شمالا، ليصب في الابيض المتوسط، وينبع عن يسارها الليطاني، اكبر انهار لبنان، لينحدر نحو الجنوب، ويغيب في البحر عند صور.

والمدينة تقع في نقطة تكاد تكون متوسطة، بين عاصمة لبنان، والعاصمة السورية، ومدينة ابن الوليد، فهي على ٨٧ كيلوا متراً عن دمشق، ومئة كيلو متراً عن حمص ويبعد عنها ارز لبنان ٥٠ كيلو متراً..

وبعلبك، ذات جمال رفاف، ومناظر، من صنع الانسان والطبيعة،

خالدة . وإذا كانت الاناقة والدقة ، من الخصائص المميزة للفن اليوناني ، واذا كانت الضخامة والقدرة من الصفات المميزة للفن المصري ، فالذي لاشك فيه أن الرومان ، تركوا في بعلبك ، مميزات الفنين المصري واليوناني جميعاً . وأما مناظرها الطبيعية ، فوسوسة مياهها المتدفقة عبر التاريخ ، وهواؤها المعطر دوماً بشذا الصنوبر والسرو ، وأماسيها الرائعة في الظلال والأفياء الوردية ، لمن أبدع ما خطته يد الخالق على طرس الوجود!.

بينا أعيد الطرف عنها راويا عجباً واعجاباً ، اذا هو صاد (١)

في احضان المدنية خالقة الجمالات ، وربيبة الحضارات . وملتقى الامجاد الطارفة والتليدة وفي البيت الذي يجثم على كتف المدينة ، عند السور العربي القديم قرب باب الشام ، نشأ وترعرع شاعر العصر خليل مطران .

(١) البيت لمطران في وصف بعلبك

حياة الشاعر

في بعلبك

ولد شاعر العصر في شهر تموز عام ١٨٧٢ م . وأبوه عبده ، بن يوسف ، بن ابرهيم ، بن مخايل ... مطران . وأمه ملكة الصباغ ، ذات ثقافة عالية ، ونحسن الشعر ، تتحدر من أسرة فلسطينية محترمة ، من حيث نضالها ضد الاستعمار ، وجدّها كان من أصدقاء الجزار المقربين ، ثم انتقض عليه الطاغية ، ففر من فلسطين وسكن لبنان ، وأما جدته لأمه ، فكانت تقرض الشعر ، ولها فيه من الوسط .

والذي ، لاجدال فيه ، ان أمه لعبت دوراً بارزاً في تنشئته الاولى ، فكان لها الأثر الفعال في تكوين خلقه ، وتكييف نفسيته ، ومساعدة شخصيته على الاستبانة والوضوح .

وتركت تربيته الأولى فيه خلتين بارزتين ؛ أولاهما : خلة المعاودة والمراجعة ، بمعنى أن كثرة حركاته ، وهو يتعامل مع المحيط الخارجي كانت تعرضه للعثرات المستمرة ، لكن محيطه المثقف ، كان يسمح له بتفهم هذه العثرات ، فيعود الى الفعل الاول أكثر من مرة ، حتى يستقيم له وثانيتها : حب الاختلاط بالناس ، والعطف عليهم ، فهو إذ كان يلعب مع غيره من الاطفال بحرية لاتقيدها رغبات الأبوين ، كان يدعوهم الى

سهرات الطفولة الحلوة ، ويقدم لهم الضيافات السخية الصغيرة . . وكانت أمه تحترم له هذه الارادة ، وتساعده على تحقيقها ، فخلص الخليل من ذلك بميل قديم ، الى خلق الصلات الاجتماعية بالناس .

يقول مطران في هامش الصفحة ٨٧ من مقتطف يونيو ١٩٣٩ : « في المعاودة وحدها ، تاريخ تكون شخصيتي ، فقد كان هنالك عاملان يفعلان في نفسي ، شدة الحساسية ، ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص » . وما أن شارف التاسعة ، حتى طمح الى ركوب الخيل ، وممارسة الفروسية ، وهو طابع يميز اكثر شباب المدينة ، وعائلته ؛ واذا به في احدى ممارساته يسقط عن ظهر جواده ، فينكسر بعض اضلاعه ، وعظم أرنبة أنفه ، مما سبب له ، تشويها فيه ، وصلح ليكون موضوعاً لكثير من النكات الراقية المستملحة ، كان يسوقها صديقه حافظ ، صاحب الانف الذي لايخلو من ضخامة ، فيما بعد (١)

في زحلة

وظاهر الحال ، أن اهله ، خافوا ان تقوده مغامرات ركوب الخيل ، الى مالا تحمد عقباه ، وفي هذه الاثناء كانت المدارس بدأت

---

[١] قدم حافظ لمطران ، صورته ، ليرى رأيه فيها ، فتأملها مطران مليا ، وقال : « الصورة ، ياحافظ ، كويسه قوي ، بس . . الانف مش ولا بد » . فأجابه حافظ ضاحكا على الفور : « ياشيخ احنا قلنا لك ، انظر في الصورة او في المراية ؟! . . »

تعمر الارض اللبنانية ، كما ان عبده مطران ، لم يكن من هؤلاء الاثرياء ، اصحاب الدساكر ، والاراضي الوسيعة ، كما خيل للدكتور اسماعيل احمد أدهم ، وكان يريد ان يعوض هذا النقص ، بين ابناء عشيرته ، بتعليم وتثقيف ابنه فأرسله الى زحله ، ودخل الكلية الشرقية ، حيث انهى علومه الابتدائية فيها ، ومقعد دراسته الذي نقش عليه اسمه ، لاتزال المدرسة تحتفظ به كذكرى جميلة ، الى اليوم .

وتركت زحلة أثرها العميق ، في نفس الشاعر ، لقد فتح الحب أجفان مطران ، أول مافتح ، في جارة الوادي ؛ ولا عجب فهي مضرب المثل:

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً بزحلة ، ذكره غنم
إذ يلتقي في الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرم ...

•

الى أن يقول في صاحبته في الكرم :

ضحاكة كالنور في الزهر رقاصة كالغصن في الوادي
كرارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الشادي

•

صنعت بقلبي صنعها ..

في بيروت

وانتقل الى المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت ، فدرس النحو على الشيخ خليل اليازجي ، والبيان والادب على الشيخ ابرهيم اليازجي ، فاستقامت له بذلك ثقافة عربية تكاد تكون خالصة . وأما

الفرنسية ، فقد درسها على أستاذ من التورين ، لم أعثر له على اسم . ولكن لو ذكرنا ماكان لجماعة التورين من فضل على الفرنسية ، من حيث تهذيبهم للغة ، وتنقيحهم لها ، وأناقتهم ، ودقتهم ، في التعبير والافصاح (١) ، لامكن التنبؤ ، عماسيكون لهذا الشاب من تأثر ببلاغة الغرب ، سيترك فائدته المهمة في شعر شاعر العصر .

يقول الدكتور أدهم : « ومن هنا اعتقد الفتى ، وهو ابن ثقافتين ، ان المستقبل في الأدب العربي ، ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى ، في المعاني والاشكال ، والمشاعر والصور ، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر ، وخلجاته ومشاعره ، واتجاهاته في قالب عربي رصين » .

على أنه يجب الالتفات ، الى أن مطران في هـذه السنة سنة ١٨٨٧ أخرج أول قصيدة له ، يصف معركة « يينا » بين نابوليون ، وبين البروسيين وهي تصلح الى حد بعيد ، لمعرفة ما سيؤول اليه ، أمر هذا الشاب الذي لايبلـــغ سن المراهقة بعـد ، بالرغم من الطريقة القديمة ، التي تطبع القصيدة على العموم .

كما يجب النص ، على أن الفتى ، وقع في هذا الوقت ، فريسة تجاذب خارجي عنيف ، فاستاذه الشيخ اليازجي ، يشده نحو أدب العرب ، ونسيبه رشيد بك مطران ، يهيب به للاقبال على أدب الغرب ، وتمكن الشاب في هذه السن المبكرة من أن يكون لنفسه طريقته التي سينتهجها في

---

(١) راجع ان شئت الكتاب الذهبي :

Génie d'orient et Génie d'occident

بقلم Marie cathérineQ oulad ، ص : ٢٨٥

حياته الادبية ، وهذه الطريقـــة يشير اليها هذا القول الذي نقلتـه للشاعر المجلة المصرية (١) : « اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر ، لايجب حتماً أن تكون خطتنـا ، بل للعرب عصرهم ، ولنـا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا ، ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلاً لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم » .

وبعد تخرجه من البطريركية ، بدأ ينظم شعراً ضد السلطنة الكبرى والاستبداد الحميـدي ، وقد روى لصديقه عمر فاخوري ، أنه كثيراً ما كان يذهب صحبة بعض رفاقه الى أعالي الأشرفية في بيروت ، وينشدون نشيد المارسييز ، وقد كان رمز الحرية ، وعنوان النضال ، وطريقة من طرائق تحدي الاستعمار ، في تلك الأيام السوداء ، وأوقف أخيراً بتهمة العمل للثورة ، غير أنه لعدم توفر الأدلة ، وربما لمكانة عائلته ، خرج بريئاً.

وفي أحدى الليالي الصائفة لعام ١٨٩٠ ، عاد مطران الى غرفته ، في أخريات الليل ، ولم تكن غرابته شديدة ، عندما رأى سرير نومه ، مثقوباً بالرصاص لقد خال جواسيس عبد الحميد ، أن الفتى فريسة سبات عميق ، فلا أسهل من أن تنطلق عـدة رصاصات ، من النـافذة ، على سرير نومه ، وينتهي الأمر (٢)...

في باريس

وترك الخليل ، عندئذ بيروت ، ووجهته باريس لقد أراده أهله على

---

(١) المجلة المصرية – الجزء الثالث : ص ٩٥

(٢) من حديث خاص ، مع ابن عمه السيد جودت مطران ، وقد روت لي نفس الحديث ، شقيقة الشاعر السيدة املي مطران .

السفر ، لأكثر من سبب ، فهم أصدقاء العثمانيين ، وليسوا بحاجة الى إفساد هذه الصداقة ، اكراماً للشعر ، هذا أولاً . وخوفاً على حياة الشاب من جهة ثانية . ودفعه الى مراقي العلم والمجد ، الى منبت الحرية ـ عاصمة الفرنسيين ـ هذا أخيراً .

وعرج على الاسكندرية لبضعة أيام ، اتصل خلالها بعاهل البلاد ، بواسطة سليم تقلا ، صاحب الأهرام ، وأخيراً انتهى المطاف به ، في باريس.

وبقاؤه في العاصمة الفرنسية ، يشكل مرحلة خطيرة من مراحل تثقيفه ، ولا شك أنه سيكون لها أعظم الأثر في فهمه الأدب ، ومنهجه الذي استنه في عالم الشعر .

ولم يقصر همه في باريس ، على انتهال حياض المعرفة ، وحسب ، وإنما كانت له اتصالات سياسية ، مع جماعة تركيا الفتاة ، الحزب الذي كان يعمل ضد طغيان عبد الحميد ، وكان طبيعياً ألا يخلص الشاعر ، اذن ، من رقابة الجلاد العثماني ، وضايقه جواسيس عبد الحميد بالفعل ؛ نتيجة تأثيرهم على الحكومة الفرنسية ، وشعر بضرورة التخلص من هذه الأجواء..

واذ كان يوجد له انسباء في أميركا الجنوبية ، ولتعهد حكومة تلك البلاد ، باقطاع الأرض بلا مقابل للمهاجرين ، فقد أكب مطران على تعلم اللغة الاسبانية ، تمهيداً للسفر الى تلك البلاد ، وقد توفر حتى الآن على معرفة أربع لغات ، معرفة تامة : العربية ، وهي لغة ذويه وقومه ، والتركية وهي لغة الدار التي نشأ بها ، والفرنسية التي تعلمها في بيروت وباريس ، والاسبانية مقدمة لسفره !..

ولكن الخليل، كان سنة ١٨٩٢ في طريقه إلى الاسكندرية على الشاطىء المصري، وكثير ممن أرخ حياة الشاعر الكبير، يتساءل دون جواب عن سبب رجوعه إلى مصر، ونسي هؤلاء، أن الشاب الذي وطن نفسه على النضال، لن يستسلم إلى حياة الدعة، وكسب المال في شيلي، ولو كان يحب أمثال هذه الحياة، لبادرها أوبادرته على سهولة ويسر، بين قومه وإخوانه في مسقط رأسه، ولكنها هموم الرجال ودوافع الواجب، تشده إلى أرض الكنانة، وهي في شبه استقلال إذا قيست بغيرها من بلاد العرب؛ وعلى أية حال، فليس ثمة ما ينبىء، أن جواسيس الطاغية، ستكون لهم رقابة عليه في البلد المصري، بل على العكس، سيكون في شبه مأمن من الرق الفكري، والطغيان النيروني!.

هبط مطران الاسكندرية، ونعي سليم تقلا، صاحب الأهرام يصك الأذان، فكانت وفاة الرجل الكبير، صدمة عنيفة للشاعر الشاب، الذي يحفظ للصحفي النابه، أيادٍ بيضاء، والظاهر أنه لم يكن في تأبينه ساعة الدفن، ما يتناسب وخدمات الرجل الذائع الصيت، فارتجل الخليل خطاباً قوياً. استهله ببعض الجمل النارية: «ياقوم من خرجتم تشيعون، أقصبة تحركها الريح، أما خشبة يتطارحها الموج، أين شعراؤكم، ولمن أعددتم خطباءكم؟» الخ.. ثم انشد قصيدة قوية، وما يكاد يفرغ حتى يبادره رجل بالسؤال عن اسمه فيجيبه الخليل، فيطلب إليه هذا ويلح، أن

يقبل التحرير في الأهرام . وكان الرجل بشاره تقلا ، شقيق سليم تقلا ، ورضى خليل مطران .

وفي سنة ١٨٩٣ انتدب الخليل عن الأهرام لمرافقة الخديوي عباس في زيارته للاستانة (١) ولما رجع من رحلته ، انتدبه بشارة تقلا ، ليكون مراسلاً للأهرام في القاهرة ، العاصمة

في القاهرة

وأخيراً عام ١٩٠٠ ، عنّ له أن يشتغل بالصحافة لنفسه ، فأنشأ المجلة المصرية ، نصف شهرية ، اولا ، ثم اصدر الجوائب المصريـــة ، يومية ، ثانياً ، ووجد من الناس موازرة واقبالا ، عظيمين ، وكانت الحادثة التالية:

« وذات مساء رجع إليّ الجابي من جولة ، وأبلغني أن صديقاً لي ، ممن كنت أعاشرهم معاشرة متصلة ، استمهله في إداء ما عليه ، ولم يكن ذلك للمرة الأولى ، ويظهر أن الجابي ألحّ عليه ، باعتبار مايعرفه من الصلة المحكمة بيننا ، فالتفت إليه هذا الصديق ، وجابهه بقوله : « أهو ممن عيش ؟ » فلما سمعت هذه العبارة ، خيل إليّ ، أن كل من أرسل إليه جريدتي ، وإن تلطف في الظاهر ، يحسبني متطفلاً عليه ، فيما أتقاضاه منه ، ولا يقدر تلقاء ذلك ، ما يبذل من جهد في التحرير وفي نفقات الطبع والبريد ، وما إلى ذلك من أعمال تستنفد مجهوداً ووقتاً ومالاً »(٢)

---

(١) وكان للخليل من جودت باشا ، رئيس مالية دمشق سابقـــاً ، ووزير العدلية في استنبول آنذاك ، مضيف سخي ، ومن كريمة هـــذا الأخير ، خير مؤنس للشاعر في غربته ، وله فيها قصائد ، نحفظها في بعلبك . وينكرها شاعر العصر ! ..

(٢) من مقال لمطران منشور في « هلال » يناير عام ١٩٣٠

وكان أن وهب جريدتيه ، وباع المطبعة وودع الصحافة عام ١٩٠٤ ، وكان كل ذلك من حسن حظ الأدب والشعر ! . .

اتصلت حياة الخليل ، بعد هذا التاريخ ، بممارسة الشؤون المالية ، وكثرت مضارباته ، وربح وخسر ، وكان عام ١٩١٢ فأضاع في صفقة واحدة كل ما يملك ! .

هذا الخليل ، يجلس إلى منتزه عين شمس ، في مصر الجديدة — هيليو بوليس — وقد تحكم به الم قاتل ، اجتاح قلبه ، وعصره عصراً . أليس هو بحكم مركزه المرموق ، وصلاته الاجتماعية الكثيرة ، وصيته البعيد ، بأمس الحاجة إلى المال المفقود ، فالقضية ليست اذن قضية مال ، إنها قصة الكرامة الطعين ، والظاهر أن شاعرنا ، فكر جدياً بالانتحار ، غير أن خلة المعاودة — لأقول التردد — جعلته يخرج إلى فساد هذه الفكرة ، ومن ثم اطراحها . ولكن الألم الدوي ، لم يترك الشاعر ، دون أن ينطقه برائعة من روائع الأدب العربي ، في كل العصور فكانت « ساعة يأس » التي عرفها الناس فيما بعد بأسم « الأسد الباكي » وانتشر خبر القصيدة ، وفتش أصحاب الخليل عن خليلهم حتى وجدوه ، وعادوا به الى القاهرة ، وكانت عودته عودة الرجل الصلد ، الذي تتكسر على صخرة صلابته ، أحداث الزمان ، كل أحداث الزمان ! . .

وعين سكرتيراً مساعداً للجمعية الزراعية الخديوية ، وكانت لفتة مشكورة من سمو الخديوي عباس حلمي الثاني الذي أحب أن يوفر للشاعر دخلاً ثابتاً ، وراتباً غير متقلقل ، بيد أن الخليل رفع بالجمعية الزراعية ، درجات عالية في التنظيم والتدبير ، والتثقيف ، فكتب المقالات

الطافحة عن ضرورة توجيه الاقتصاد السياسي المصري، وأظهر براعة نادرة، وتذوقاً غريباً في الشؤون التي تتصل بالحساب بصلة؛ وفي عام ١٩١٣ أقيمت للخليل في دار الجامعة المصرية الأهلية، حفلة تكريم رائعة، كانت عكاظ الشعر والنثر العربي؛ في تلك الحقبة، تلاقى شعراء لبنان ومصر وسوريا، والعراق والمغرب، بقصائد من الشعر الراقي، مع كتّاب هذه الاقطار، بنفثات من النثر الفني البارع. وفي هذه الفترة بدأ الخليل يتعهد المسرح المصري - وكان قد قبض على ناصية اللغة الانكليزية - بروايات مسرحية مترجمة، قدمها الى التمثيل، وساعد في الاخراج، وكانت له في سبيل المسرح المصري، جهود مضنية.

الآن يستطاع القول أن شخصية الخليل، قد وضحت تمام الوضوح وانكشفت تمام الانكشاف، فتمازجت تجاربه الكثيرة، مع عناصره النفسية الثابتة الأصل في طبيعته، فخلص الى شخصية واضحة المعالم، بادية السمات، كثيرة الوجوه الفنية، عميقة التفكير: شخصية عالمية.

وما يطل عام ١٩٢٤ حتى يقوم الخليل بزيارة الى لبنان، وسوريا، فأقيمت له حفلة تكريم في حلب، وأخرى في بعلبك، وانشد ملحمته الخالدة نيرون في جامعة بيروت الاميركية ١٧ آذار سنة ١٩٢٤.

وزار بعلبك عام ١٩٢٩ بصحبة صديقه حافظ ابراهيم، حيث احتفلت بهما المدينة احتفالاً فخماً. وفي عام ١٩٣٤ أصبح مطران رئيساً للفرقة القومية للتمثيل المسرحي وفي الاعوام التي تلت، كان كثيراً مايؤم ربوع لبنان للاصطياف، وفي عام ١٩٤٥ أنعم عليه لبنان بوسام الاستحقاق اللبناني.

وبرزت سنة ١٩٤٥ فكرة الدعوة لتكريم شاعر العصر، فاجتمع

رهط ، من كبار القوم ، أدباً وثقافة وعلماً ، وكرام اخوان شاعر الاقطار العربية ، في النادي الشرقي في القاهرة ، وقدم حضرة الشيخ المحترم خليل ثابت بك اقتراحاً باقامة حفلة تكريمية لشاعر العصر ، والاشتراك في طبع ديوانه ومؤلفاته ، حرصاً على مافيها من درر وغرر .

وجاء لبنان عام ١٩٤٦ ، وكانت تبدو عليه إمارات التعب ، كما أنه كان يشكو من داء النقرس .

وفي ٣٠ آذار سنة ١٩٤٧ أقيم له مهرجان أدبي ، في دار الأوبرا الملكية ، شمله جلالة ملك مصر برعايته ، فأوفد مندوباً عنه . وتكلم في الحفل لفيف من كبار أدباء العروبة وشعرائها .

وبدأت سلسلة مهرجانات في القاهرة ، والاسكندرية ، ونيويورك ، قامت بها المفوضيات العربية ، بأمر حكوماتها ، والجاليات العربية ، والنوادي الأدبية ، وقد جمعت كل القصائد والخطب ، التي القيت في المهرجانات التسعة الرائعة ، وكل الرسائل والمقالات التي ظهرت بتلك المناسبة ، في كتاب خاص ، يقع في ٣١٩ صفحة هو الكتاب الذهبي ، لمهرجانات خليل مطران ، نشرته لجنة تكريم شاعر الاقطار العربية .

وقد رأى الخليل ، حتى عام ١٩٤٧ تمثالاً له في الكلية البطريركية في القاهرة ، كما قدم له تمثال نصفي آخر في المهرجان الذي أقامته له النوادي الخمسة ، في مركز النادي الشرقي بالقاهرة . وعرض له تمثال ثالث آخر ، في اجتماع الأونيسكو في لبنان عام ١٩٤٨ .

وألح عليه النقرس عام ١٩٤٩ ، وشاء أطباؤه مداواته وتغذيته بالمستحضرات الطبية ، فكان يعاني منها آلاماً مرهقة ، وأخيراً التفت إلى

طبيبه وقال له : « أنا أعتبر نفسي الآن قد انتهيت ، وان كنت لا أزال أعيش ، فبقوة الارادة ، وكل ساعة أحياها تعتبر ليست من حقي ، انها سرقة موصوفة !. أيها الطبيب أريد أن أخلص ، فقد انتهيت[1] ..

وفي صبيحة أول تموز ١٩٤٩ ، نعت محطات الاذاعة العربية والعالمية وفاة شاعر العصر ، في الساعة الحادية عشرة والنصف من ليل الجمعة في أول تموز عام ١٩٤٩ .

وهكذا أسدل الستار ، على أروع حياة ، أريد أن أقول ، أروع قصيدة عاشها شاعر ...

---

[١] وخرج طبيبه ، من عنده ، يرجو ابن عمه حبيب بك مطران . أن يقنعه بضرورة تناول الدواء ، ودخل عليه حبيب ، فرجاه ، رحمة بهم ، فقال: « اذا كان في ألمي فائدة لكم فسأحيا ، ولا سيما ، انني أتلقى أمراً منك ، وأنت اليوم قائدنا ورئيسنا ، فسأطيع ، لأنني لم أتعود مخالفة الأمر ... »

كذكرى — صورة..

... جسم معتدل، نحيف، وكتفان صامدان، يجثم عليهما كلكل الدهر، فلاينيخهما وجبهة عريضة، يشع فيها ذكاء مدهش، وتحفرها خطوط عميقة، نتيجة التفكير المضني، وانف كبير، كأنما عناه سليمان النبي، في حديثه على لسان الشولمية الحسناء، وهي تنشد حبيبها في دروب وشعاب أورشليم: «كجبل لبنان الناظر إلى دمشق!» ولعل الأنفة، وهي الكبر، اشتقت اسمها من انف شاعر العصر، وقد ركّز عند أعلاه، نظارتين لون الماء، وتحتها عينان ينبض في أعماقها، بريق أسرار الوجود، وذقن عريضة مغموزة، تدل على شيء من الثورة الهادئة، وشفتان مطبقتان شرقيتان، تحملان كل ما يتصف به الشرقي القديم، من تصميم على التنفيذ، وحزم على الارادة، وتتدلى سفلاها بعض التدلي، لتشير إلى شيء من عدم الاكتراث، وبعض التحدي. بينما تنوء عليهاها، تحت شاربين طويلين مسترسلين، ووجه واضح القسمات، بادي بخطوط، يمسحه شيء من الألم الباسم — إن صح التعبير — فهو متشائم، على العموم، ولكن قوة العقل فيه تصبغ تشاؤمه بلون من الروعة، والعطف على النار عجيب!..

.. تلك آخر صورة احفظها لشاعر العصر، في أواخر صيف ١٩٤٦، بعد جلسة طويلة معه، في بعلبك:

ما زلت انقذ كلما ذكرت قطعاً طفت منها على الزمن (١)

(١) البيت لمطران من قصيدته: «هل تذكرين».

كان كعادته يجلس لامضطرباً ، ولا متقلقلاً ، يشد ركبتيه إلى بعضها وتنساب ساقاه متوازيتين ، فلا يثني احداهما على الاخرى فيشعر جليسه بتربيته الراقية وتهذيبه الرفيع .

محدث لبق ، يقبل عليك وأنت تحدثه ، منصتاً مستفهما ، متعجباً حيث يجب ، ولعله أدرى بحديثك منك ، ويقبل وهو يحدثك ، بطلاقة وطرافة ولين ، ولعله من تواضعه يأخذ منك ما يفيض به عليك .

حر الفكر ، إلى أبعد حدود حرية الفكر . . . فطبيعته الرحيبة ، وشخصيته المتعددة الجوانب ، الوسيعة الآفاق ، لاتتعرف إلى التعصب والمقت . ولا يسع قلبه ، وهو الوسيع ، شيئاً من حقد أو بغض أو حسد . . .

شديد الانفعال الداخلي ، دون أن تتوتر أعصابه مهما كان التحريض شديداً ، وهو كتلة عجيبة من ضبط النفس ، ورد جماح الهوى الشرود ، والميل الجارف .

وإذا كانت البلاغة ، كما عرفها العرب ، موافقة الكلام لمقتضى الحال ، كان الخليل بأقواله ، وأفعاله ، أبلغ الناس وأشدهم لصوقاً بالتعريف .

الارأيت إليه ، وهو يحدث الشيوخ عن هموم الشيوخ ، بلغة لايفهمها غير الشيوخ ؟ . والشباب عن آمال الشباب ، بلغة الشباب ، وسيدات المنزل عن أحدث الأزياء ، وشؤون الطبخ والنفخ ، والوان الطعام . . ،

وكم يستغرق مع الزراع في حديث لايهضمه غير الزارع ، وحتى ليعود لايفهمه حتى الزراع ! . وكم سبح مع الشعراء في أجواء ، حتى ليقف عن السبح فيها معه الشعراء ، أما بحوثه في الموسيقى ، فلا يفهمها سوى الاخصائيين في هذا الفن ! . .

هـذا أعزب يفتش له عن زوج، فاذا زوجه ومهره كان نقوطـه قصيدة من الشعر تكون أطيب ذكرى يحفظها العروس عن يوم عرسه.

وهذا شاب غر، يريد أن يمدح الخليل بقصيدة، أتظن أن الخليل يسكت ؟ . معاذ الذوق والكرم، وطيب الخلق، أليس من سعادة هذا أن يسمع الخليل يطريه ؟ . .

لقـد جنى على الادب العربي بطيب أخـلاقه، وشعر مناسباته، جناية لايشفع له بها، إلا ماقدم للشعر من أطايب الفكر وأفانين القول...

ودموع البائس أتظن أنه يمسحها بمنديل العطف والحنان ؟ إنه يشفعها ببدرات من المال، فتكون الى جانب العطف، أجدى في مسح الألم، في هذا المجتمع الذي لم يتحرر فيه الناس بعد من الألم[1] !..

أما أخلاقه الخاصة فانها العجب العجاب لقد انقلب الى صخرة من الأخلاق القويمة، تتكسر عليها مفاتن الوجود، كل مفاتن الوجود.

وخلاصة القول، ان شاعر المصر، بشخصيته الرائعة، واحد من أولئك اللبنانيين، الذين يحطون رحالهم بين سلسلتي لبنان الشرقية والغربية في سهل البقاع، في أعلى سهل البقاع، وقد سار ذكرهم بالتسامح والسماح والأنفة والشجاعة وعزة النفس...

---

(١) كان يسير بصحبة صديق له، عـلى رصيف في أحد شوارع القاهرة، وفجأة انتقل الخليل بصاحبه، الى الرصيف الثاني، ولما ألح عليه الصديق في معرفة السبب، قال الخليـل: «لمحت الآن شاباً، جاءني البارحة يستلفني مالا، لأن أمه ماتت في الصعيد، وهو يريد تكفينها وأعطيته، واذا رآني الآن فهو لابد عارف أن حيلته قد انكشفت، فينكسف، ولا أحب له!.»

شاعر التجديد

بدوي

أشعة على شعرنا - الوحدة الفنية — موضوعية
ملاحم — أغراض جديدة — عواطف راقية
الطبيعة : كائنات مفكرة — دراما ...

« .. قال بعض المتعنتين الجامدين ، ان هـذا شعر عصري ، وهموا بالابتسام فياهؤلاء : نعم هذا شعر عصري، وفخره انه عصري ، وله على سابق الشعر، مزية زمانه على سالف الدهر ، هذا شعر ليس ناظمه بعبده ... ان شعر هـذه الطريقة — ولاأعني منظوماتي الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحيـاة والحقيقـة والخيال جميعاً ... » .

خليل مطران

كان القرن التاسع عشر ، عهد اليقظة والانبعاث ، في الفكر العربي عامة ، وفي الأدب والشعر العربي على وجه أخص . وقد بينت فيما سبق كيف استفاق الفكر العربي ، من سباته الطويل ، نومة أهل الكهف وانتج في جميع ميادين الثقافة العامة ، وأريد هنا أن أنبه إلى شكل ذلك التطور الحادث ، الذي أرى إليه أنه لم يكن تحولاً وانقلاباً ، وانما استمرار لماض توقف ، وانطلاق بهذا الماضي في النهج الذي عبده له القدامى .

وبمعنى أوضح أرى أن شعراء هذا العصر ، كولي الدين ، والبارودي ، وشوقي ، وحافظ ، والرصافي ، والزهاوي ، وغيرهم من الشعراء الذين ظهروا في أواخر القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين ، اقتصرت حركة بعثهم ، في أكثر نواحيها على نظم الأغراض القبلية القديمة ، والسير بالشعر العربي على الطريقة نفسها ، التي كان وقف عندها ، في بدء عهد الانحطاط ، لاتجديد هذه الطريقة ، والنهج بالشعر نهجاً جديداً .

وإن شئت صورة تمثيلية لذلك فأرى إلى الشعر العربي ، كقافلة كانت تسير مع الركب العالمي في طريق التسامي والتحرر والجمال ، وحدث أن توقفت عن السير في عصور الانحطاط التركي ، ثم نهضت متأخرة في القرن التاسع عشر ، وقد ضلت الطريق بينما كان ركب الآداب العالمية يجري بعيداً عند الأفق ، فوق الأفق ، وأبعد من حدود الظن !..

وكان مطران . . .

وانني ازعم أنه كان صاحب مدرسة التجديد في الأدب العربي ، وأنه حاول ، ونجح فيما حاول ، نقل الشعر العربي من أغراضه التقليدية البدوية ، وتصوراته القبلية ، الى أغراض جديدة تنسجم مع متطلبات العصر الحاضر ، واتجاهات المدنية الحديثة .

إنني أرى إلى مطران ، كأول شاعر عربي ، رسم لقافلة الشعر العربي المتأخرة ، طريقاً جديدة مختصرة ، لدرك الركب العالمي ، الذي يجري عند الافق ، فوق الأفق ، وأبعد من حدود الظن ! .

والشعر العربي ، لاينبغي له التطور الهادىء ، والاستمرار البطيء ، بعد تلك النومة الطويلة ، وإنما طلبته الصحيحة ، حاجته الحيوية الملحة ، إنما هي الثورة الواعية ، حرق المراحل ؛ فكان لامفر ، بالاضافة إلى العبقري على الأقل ، من القيام بحركة عنيفة ، ضمن المدى المحدود ، يكون نهجها وهدفها ، اللحاق بالقافلة الكبرى ، والجري في مداها الوسيع .

أجل ، فالثورة يجب أن تكون شاملة ، أدبنا وأفكارنا وتقاليدنا ، ونظمنا الاجتماعية ، يجب أن تتناول الأعماق وتعصف في الجذور ، ولكن مالا يدرك كله ، لا يترك جله ؛ وهكذا كانت ثورة شاعر العصر ، في نطاق الشعر والأدب وحسب .

وبعد ، فالقرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين كانا ملأعين لظهور عبقريات ذوي الرؤى البعيدة ، ولاوجه لمسايرة الدكتورطه حسين في اعتذاره عن تقصير شوقي وحافظ ، فهما : « إذا لم يبلغا من التفوق ،

ما كنت أحب لهما ، واتمنى للشعر العربي الحديث ، فقد لاينبغي أن نلومهما في ذلك ، وأن نذكر قول عمرو بن معدي كرب :

فلو أن قومي انطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

فلم يكن هذان الشاعران ، الا مرآتين صادقتين للعصر الذي عاشا فيه ، وقد أديا إلينا ما الهمها هذا العصر ، فأحسنا الاداء (١) » .

لا ، لاأريد أن أعتذر لأحد من شعرائنا ، فالعصر موات أشد المواتاة والشعب نهم عطش ، شديد التقبل ، والمقصر ، وحده ، يتحمل تبعة تقصيره.

وأثمرت حركة شاعر العصر ، فضمت مدرسته طلاباً ، سرعان ما أصبحوا أساتيذ التجديد ، في مختلف أقطار العروبة . على أن عنصراً مهماً ساعد على نمو الحركة المباركة ، وامتداد ظلال نفوذها ، هو سوريا ولبنان ، ذلك أن هذين القطرين كانا سباقين الى التحرر من قيود الماضي ، بسبب اقبالهما قبل غيرهما ، على ثقافة الغرب من جهة ، وللحالة الاقتصادية الحسنة ، في هذين القطرين ، بالقياس الى غيرهما من أقطار العروبة ، من جهة ثانية ، ولا أعني بالحالة الاقتصادية الثروة العامة التي يملكها القطر ، وانما الرفاه الاقتصادي النسبي الذي يعيشه الفرد . وعن ذلك تبقى سوريا ولبنان دوماً موطن الاتجاهات التقدمية ، في كل البلاد العربية ، بما فيها الأدب والفن والسياسة جميعاً ..

لقد كثر حديثي عن هذا التجديد الذي صنعه مطران في الأدب العربي ، أتراني سأبلغ الحديث عنه ؟..

---

(١) مجلة الكتاب ، اكتوبر – ١٩٤٧

أضواء على الشعر العربي ..

لعل أهم مايطبع الشعر العربي القديم ، اقتصاره على ألوان من القول محدودة ، وسلوكه في التأدية والتعبير عنها ، طرقاً محدودة ، أما بالنسبة للشق الأول ، وأعني الأساس ، بلغة رجال القانون ، فالظاهر أن حال العصر ، كانت تستدعيه ، وأما بالنسبة للشق الثاني ، أقصد الشكل ، فمرده قناعة الشعراء بوجاهته ، ثم الاعتياد ، والارتياض عليه بطريق التقليد ، والمحاكاة ، والاستمرار فيها .

فالقصيدة تعتمد على وحدة القافية والوزن ، ولا تعنى بوحدة الموضوع فهي جملة من القطع ، أو القدد ، كل قدة تشرح جانباً من الفكرة عارضاً ويقفز الشاعر العربي ، بتخلص حسن ، أو غير حسن ، إلى قدة أخرى ليشرح جانباً من فكرة أخرى ، قد لاتمت إلى الاولى بصلة ، وهكذا دواليك حتى تنتهي القصيدة .

وتظهر براعة الشاعر العربي ، بالقدرة على التخلص من قدة الى قدة بواسطة قانون التداعي ، ناظم الحياة الفكرية العام ، كما يقول علماء النفس.

هذا ، وينفرد كل بيت من القصيدة بالتعبير عن فكرة ، قد تكون عميقة ، وقد لاتنطوي على شيء من العمق والروعة :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غدٍ ، عم

فالوحدة الفنية ، إنما تكمن في البيت ، وبشيء من الحلم والتساهل ،

قد تكمن الوحدة الفنية في القدة الواحدة ، دون أن تتجاوزها الى مجموع القصيدة ، والقصيدة بمجموعها ، جملة من الأفكار التي لاترى من المظاهر سوى سطوحها الخارجية ، دون النفاذ إلى حقائق الأشياء بذواتها :

وما الحرب إلاّ ماعلمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذ أضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتأم

والطريق لعرض تلك الافكار التقليدية واحدة تقريباً ، فامرؤ القيس مثلاً ، في أروع قصائده ، يقف على الطلول ، يبكي ويستبكي ، ويتذكر أيام لهوه ، ومرابع أنسه ، ويصف الليل ، والذئب والفرس ، الذي يجري كالبرق ، أو كجلمود الصخر ، ينحدر من علٍ ؛ كما لاينسى البرق ، والسيل والوادي ، وأشياء كثيرة غيرها .

وطرفة مثلاً يقف على اطلال خولة ، لكنه ، يتجلد ، ويمسك نفسه عن البكاء ، ويصف حبيبته ، وأسفه لرحيلها ، وسفرها ، وحسنها ، والناقة وسرعتها ، ونفسه وكرمه ، ولهوه ، وسكره ، وعتابه لابن عمه ، ووصيته لفتاة أخيه ، أن تندبه اذا مات ، كل ذلك بقصيدة لاتزيد عن المئة إلا قليلاً .

وكذا الأخطل ، في العصر الأموي ، وقوف على الاطلال ، وتغزل بالمحبوب ، ووصف للناقة ، دون أن يفوته تشبيهها بالثور الوحشي ، ثم التخلص الى مدح الأمويين ، ونعتهم بالكرم والشجاعة ، وغيرها من الصفات التي يحب كل شاعر أن يلصقها بكل ممدوح ، والتي قد تنطبق على أي شخوص غير الأمويين . أما أغراض الشعر ، فتكاد تكون واحدة ، مدح ، أوهجاء أو غزل ، أو رثاء . ولا نكران ، أنه ، في العصر الأموي ، استحدث ، لون

من الشعر لم يكن معروفاً في الجاهلية ، هو الغزل ، وأعني بذلك أنه أصبح فناً قائماً بذاته يقصد اليه قصداً ، لاتوطئة للقصائد ، كما كان الحال فيه ، زمن الجاهلية ، هذا فضلاً عن تغير موضوع الغزل .

كما استحدث فن آخر ، هو هـــذا الشعر السياسي ، الذي ظهر ، للدفاع عن الخلافة الأموية أو للهجوم عليهـا ، وهو فن رائع ، لاتنقصه الوحدة الفنية . وعلى الجملة ، فالقصيدة كانت تأتي ، من خلال ، خيال العربي الشرود ، كنقدات طائر ، أو ركزات نحل ، تفتقر الى الوحدة الفنية ، كما تفتقر الى الفكر المركب ، الذي يلف المظاهر الطبيعية كلهـا ، في النطاق العام لوحدة الوجود .

ورسف الشعر العربي بالقيود التي وصفت لك حتى أطل العصـر العباسي ، وأطل معه بشار بن برد ، الذي هجم في الشعر على أغراض جديدة ربما فرضها حال العصر ، واستبحار العمران ، ومتطلبات الحضارة .

نظمها باسلوب جديد لم يألفه القدامى ، مـــع صور واستعارات ، وطريقته ، كانت طريقة لبعض المحدثين فيما بعد .

وتتجدد الحياة العامة في العصر العباسي تجدداً ممدود الرواق ، وأصبحت بغداد « عين الدنيا » ـ كما يقول المقريزي ـ وضارعت ، باريس لويس الرابع عشر ، لكن الشعر العربي ، بقي على جموده ، أوقل ، تطور ، ولكن تطورا بطيئاً ، لاأكاداسجله ؛ ولولا أن يقوم الحسن بن هانى ، إمام المجددين في هذا العصر ، فيدعو الى الانصراف عن الطرائق القديمة :

دع الاطلال تسفيها الجنوب وتبكي عهد جـدتهـا الخطوب
وخل لراكب الوجناء ارضاً تحث بهـا النجيبة والنجيب

ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ولا عيشاً فعيشهم جـــديب

ويهزأ بتلك الطرائق :

قل لمن يبكي عن رسم درس واقفاً ما ضر لو كان جلس ؟ .

لكنت قلت ، أن الشعر لم يتطور أصلاً ، ولم يصله شيء من أنوار الحضارة المتألقة في بغداد .

لقد حاول أبونواس تنزيل الأصنام ، وتهديم القوالب ، فأقلع عن الاستهلالات البالية ، والتصاوير المبتذلة ، بفطرة فنية رائقة ، رائده مطابقة الفن لمقتضى الحال :

وفتيان صدق ، قد صرفت مطيهم إلى بيت خمار ، نزلنا بـه ظهرا

فلما حكى الزنار ، أن ليس مسلماً ظننا به خيراً وظن بنـا شرا

فقلنا : على دين المسيح بن مريم؟ فأعرض مزوراً وقال لنا هجرا

ولكن يهودي ، يحبك ظاهراً ويضمر في المكنون منه لك الغدرا

فقلت له ما الاسم ؟ قال : سموأل ولكنني اكنى بعمرو ، ولا عمرا

فقلنا له ، عجباً بظرف لسانه : أجدت أبا عمرو فجود لنا الخمرا

فأدبر كالمزور يقسم طرفـــه لأرجلنا شطرا وأوجهنا شطرا

وقال : لعمري لو نزلتم بغيرنا للمناكم ، لكن سونسمكم عـذرا

فجاء بهـــا زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

خرجنا على أن المقام ثلاثـة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

ثم كان ابن الرومي ، الذي طلع علينا بتلك المطولات النادرة في

الأدب العربي في وحدتها، وحسن تنسيقها، وانسجام خيالها وطرافة معانيها، الى ما وراء ذلك من وحدة التفكير، وقدرة مدهشة على سكب الحياة القوية، وإشاعة الالوان الزاخرة، في ثنايا شعره التصويري، وتمكن بوحدة تفكيره، واتساع افق شاعريته أن يسحب الطبيعة ومظاهرها لنفسه، ثم يخرجها عواطف حقيقية، تحس وتشعر فتبكي وتضحك وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، شأن الكائن العاقل:

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الافق الغربي ورساً مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها وشول باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صوراً إليها روانيا ويلحظن الحاظاً من الشجو خشعا
وبين اغضاء الفراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس فأخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغني الطير فيه فسجعا

قام هؤلاء بمحاولة التجديد، في الاغراض، وفي طريقة عرضها، ولكن محاولتهم باءت بالفشل الذريع، إذ هاجمهم شيوخ الأدب والجامدون من رجال الدين، فانتقصوا شاعريتهم، واعتبروا شعرهم قد انحط الى رتبة النظم كما أنهم لم يسلموا من رشاش الشعوبية، والالحاد والزندقة ولا عجب، فهذا شأن الجامدين من رجال الدين تجاه الفكر والشعر والأدب والفن، في كل عهود الأدب والفكر والشعر والفن..

ألا رأيت اليهم كيف قابلوا حركة الترجمة الى العربية ، في أوائل العصر العباسي ، وكيف حملوا على الفلسفة ، والأفكار الحرة ، والعلوم العالية ، والمشتغلين بكل ذلك .

وما أسهل أن يتهم رجل مثل علي بن عبيدة الريحاني ، بالزندقة بالرغم من كونه من خاصة المأمون لالشيء إلاّ لأنه اتجه في بعض كتبه إتجاهاً فلسفياً . وما أسهل عليهم أن يصفوا علوم اليونان ، بأنها علوم مهجورة ، أو أنها ، حكم مشوبة بالكفر ، وأن « من تمنطق شهراً تزندق دهراً » .

تحدثنا قصص التاريخ ؛ أن رجال الدين فتشوا دار عبد السلام ابن عبد الوهاب الملقب بركن الدين ، فوجدوا فيها كتب فلاسفة العرب ورسائل اخوان الصفا ، وكتب الطب والسحر ، وعبادة النجوم مما عنيت به بعض كتب اليونان فاستدعي عبد السلام ، وحاول المسكين تبرئة نفسه ، وانه لايؤمن بشيء مما جاء في الكتب « السخيفة » وأنه مانسخها ، ونقلها ، إلاّ للرد على ماجاء فيها ، وتسفيه آراء أصحابها ، والرد عليهم ، ولو كانوا أمواتاً . ولم يسمع له ، بل أضرمت نار هائلة تشبه تلك النيران التي كانت تتلظى في ساحات روما وغيرها من بلدان أوروبا في عصور الانحطاط ، لتأكل نتاج للفكر الجديد ؛ أو تلك النيران التي أصليت لابراهيم ، بيد أنها لم تكن برداً وسلاماً على كتب عبد السلام ، إذ جلس القضاة والفقهاء والعلماء ، وبينهم ابن الجوزي نفسه ، على سطح المسجد ، وحولهم رهط كبير من الناس ، وألقيت تلك الكتب الفلسفية في النار ، وقام من يقرأ مضمونها كتاباً

كتاباً ، يقول : ـ وعبد السلام المسكين حاضر ـ العنوا من كتب هذه الكتب ومن اعتقد بما جاء فيها ، وكان الناس يصيحون باللعن ، وكانت غضبة مضرية على « الكفار والملحدين » وقيلت القصائد المطولة في هجاء هذا الملحد الزنديق .

ولم تقف النقمة على المنطق والفلسفة وحسب ، بل تجاوزتها الى الفلك ، والرياضيات ، يقول الغزالي ، في « المنقذ من الضلال » :

« من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم الرياضي . ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ماتداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء ، مع تدقيقهم في هذا العلم . » وهو في مكان آخر يطرد الرياضيات من دائرة العلوم التي يجوز للمسلم أن يشتغل فيها .

موجز القول ، أن حركة التجديد التي قام بها بشار ، والحسن بن هاني ، وابن الرومي ، اصطدمت برجعية عجيبة ، فماتت في مهدها ، ولا حاجة لوصف ، النهايات المؤسفة التي عاناها بشار ، وأبونواس ، وابن الرومي من الخلفاء ورجال الدين أنفسهم .

ولو كان المتعنتون من الخلفاء ورجال الدين ، أوفياء لتعنتهم ، على الأقل ، لهان الأمر ، لكن الثابت ، أنهم عاشوا مظهرين مختلفين : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر التقوى والورع ؛ وثانيهما للخاصة ، وهو اللهو والمجون ، يعني أنهم كانوا يراءون ويدجلون ، وينافقون ، في غالب الأحيان ، قل ، في كل الأحيان !..

بيد أن هؤلاء لم يكونوا وحدهم ، عائقاً في تجديد الشعر العربي، فهناك عائقان أخران ؛ اسوقهما سوقاً ، دون الوقوف عندهما طويلاً ، أولهما : قدرة الشعر الجاهلي ، وحيويته ، وإمكان التبشير بضرورة بقائه وسيطرته وامتداده . وثانيهما ، عدم ترجمة الشعر اليوناني ، وتمازجه بالشعر العربي، ولي رأي في سبب قعود العرب عن ترجمة الشعر اليوناني أنا ذاكره سريعاً :

الأدب العربي ، من الناحية الفكرية ، يقصر عن الأدب اليوناني، بمعنى أن الشاعر العربي يقيد في المواطن التي يطلق الشاعر اليوناني فيها الخيال لأفكاره ، ويجمح الأدب العربي في المواطن العاطفية ، ويثب وثوبا ، لايصل إليه الأدب اليوناني ، فعظمة الأدب اليوناني في وقاره وفكره ، وعظمة الأدب العربي في لغته المنمقة وفي اخيلته البعيدة المأخذ . نعجب بجمال الأدب اليوناني لانه جمال ينفذ الى عقولنا ، ونعجب بجمال الأدب العربي لأنه يتناول عواطفنا ، ويخاطب غرائزنا ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فالحياة الاتساقية في الشعر العربي تختلف عنها في الشعر اليوناني ، فاختلاف الاوزان بين الأدبين ، كان له أثر كبير ، في عزوف العرب ، عن ترجمة ذلك الشعر العظيم .

وبكلمة ، تبدو الحياة في الشعر العربي ، متقطعه ، لااتصال بين مظاهرها واشكالها ، بينما تبدو الحياة ، في الشعر اليوناني ، متصلة ، متناسقة تلفها وحدة الوجود الكاملة .

فعدم الاقبال على الترجمة ، إنما هي قضية محض ذوقية . . .

لقد اعتبر المتأخرون ، في العصر العباسي أن الشاعر ، هو الذي يحفظ شعر القدامى ، وينسج على منوالهم ، ويصب اغراضه ضمن قوالبهم،

ولايخرج عن عمود الشعر؟

وتقننت الأساليب، وانصبت في قوالبها الخالدة، وبعُدَ بالشعر عن دائرته الفنية ليغيب في دائرة الصناعة المحض، كما هو معروف في شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري. لقد ترك لهم مسلم بن الوليد مدرسة تجديد في اللفظ فقط. والمتنبي نفسه الذي يعد شعره النموذج الكامل للشعر العربي، كثيراً ما تسمع عنده قبل هذه الآية الرائعة:

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

هذه المدحة الباردة:

ليت أنّا إذا ارتحلت، لك الخيلُ، وأنّا إذا نزلت الخيام

ناهيك عما بقيت عليه القصيدة من الأغراض الاتباعية الكثيرة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل دعا فلبّاه، قبل الركب والابل

ظللت بين أصيحابي اكفكفه ويظل يسفح بين العذر والعذل

إلى آخر البكاء على الطلول ... وينتقل إلى محبوبته، ولا ينسى وصف صاحبه السيف:

وقد طرقت فتاة الحي مرتدياً بصاحب غير عزهاة ولاعزل

فبات بين تراقينا نُدّفعه وليس يعلم بالشكوى ولاالقبل

وبالرغم من جمال النسج، وحلاوة اللفظ، وروعة الايقاع، فلست ألمح في البيتين طرفاً من فن، أوشيئاً من ذوق، فالصورة شديدة النبو: مدافعة السيف، والبرم به، في ساعة القبل. ومن لايعتقد برداءة هذه الصورة الشعرية، فليسأل الاستاذ امين نخله فعنده الخبر اليقين..

ويتخلص إلى مدح الأمير، وهو الغرض الرئيسي، الذي من أجله نظمت القصيدة :

جاد الأمير به لي في مواهبه فزانها وكساني الدرع في الحلل

ويحاول شاعرنا التجديد في المدح، فيطالعنا ببيتين من الشعر، ينطويان على أكثر من أربعين فعل أمر، في معرض الدعاء، احمّل القارىء نصف العناء، فاسمعه بيتاً واحداً :

عش، ابقَ اسمُ سدْ قدْ جدْ . مرِ أنهَ، رِ، فِ، اسر نل
غظْ، ارمِ، صبْ، اصمُ، اغزُ، اسبِ، رعْ، زعْ، دِ لِ، اثنِ نلِ

وبذلك أعجز المتنبي خصومه، فتأمل .

نعود الى القول، أن البيت عاد في القصيدة ليكون نموذج الوحدة الفنية، وانحلت القصيدة الى مجموعة من الصور المتتابعة، المتناقضة، التي ينقصها الكثير من العقل المركب، والخيال الذي لايلتصق دوماً بالمحسوس .

هذا، ولابد لي من النص، على الذاتية العنيفة التي تطبع الشعر العربي على عمومه، فهو في الشعر التصويري مثلاً، الذي يقتضي الفنان تجرداً غريباً، وانكاراً للذات عجيبة، لايمكن له أن يتخلص من هذه الذاتية، فترى الشاعر، يخلع على الاشياء، الصفات التي يتصورها لها، لأن توحي له الاشياء من صفاتها، ما يجعله يضيف شيئاً الى الثروة الفنية العامة .

وكان أخطر من كل ماذكر، دعوة شعراء عصر الانبعاث، الى محاكاة الأقدمين، والسير على نهجهم وطرائقهم، وابقاء الشعر العربي، رافلاً في اطار العصر القبلي؛ أو الدعوة لأن يعيش الناس عصر البداوة والجاهلية، في الشعر على الأقل، دون لحاظ الى فارق العصر، فبدت

الحياة ، من خلال شعرهم – إن كان ثمة حياة فيه – وكأنها قطع مفككة يسقط واحدهم فيها على صور ضيقة في دوائر من الفكر محدودة ، لا اتساع ، ولا توثب ، ولا عمق فيها ، ولا ملاحظة لعلاقات الاحداث بعضها ببعض ، وأدركا للنسب ، والفوارق بين الاشياء . فلو سمعت شوقي في رثاء الامام الشيخ محمد عبده يقول :

المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني
ياخادم الاسلام أجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الاسى ... في الزائرين وروع الحرمان
لو أن في الذكر الحكيم بقية ... لم تأت بعد رثيت في القرآن
لولا مغالبة الشجون لخاطري ... لنظمت فيك يتيمة الأزمان

لرأيت أن هذا التفجع الديني ينطبق على أي إنسان آخر ، إمام دين أو أمير حج ، أو مرتل قرآن ، كالشيخ محمد عبده ، ورأيت شوقي لايفتأ يعمم ، في كل شيء . وان التعميم يعني هنا ، عدم الدقة والسطحية ، يطبع أكثر شعر « الامير » .

كنت أقرأ لبعض الموفقين أن الرثاء ، أعني البكاء على الناس بعد موتهم ، أو قبل ، لافارق ، فنٌ يجب أن يتوارى من شعر العصر ، ولكنه مادام موجوداً فيجب أن توضع له قواعد ، من مثل ظهور شخصية المرثي ، أو حفز الناس الى الامور العظيمة ليظفروا بحسن الأحدوثة فيبكيهم الناس ، أو انتزاع عبرة راقية من الموت ، وبكلمة يجب أن يكون في القصيدة فن تصويري ، أو قبس عاطفي ، أو حكمة كبيرة ؛ أما القصيدة المثبتة فوق فلا تنطوي على شيء مما سلف . قال الصديق:

ولكنك تقسو على « أمير الشعراء » ، فالقصيدة في رثاء مصطفى كامل ، وليست في الامام كما تتوهم . قلت : لو كنت في زمن هرون ، لزحمت أبا نواس ، سأله هرون عذراً أقبح من ذنب ، فاستمهله . وفوجيء الرشيد مرة ، وهو يصعد أحد الأدراج ليلاً ، بقبلة شديدة في وجهه ، وصرخ الرشيد ، « فخجل أبو نواس وقال : « معذرة ياسيدي ظننتك زبيدة !. » .

وهرعت إلى الديوان ، شوقيات المراثي ، استطلع حقيقة النبأ الفاجع ، فاذا القصيدة بالفعل في رثاء بطل مقاومة الاحتلال ، وأستاذ الوطنية في مصر ، فرحت أرثي لهذا الرثاء ، وندمت على إضاعة الوقت في نقد « يتيمة الأزمان » أعني في مالاينفع الناس .

وقد يمدح شوقي وحافظ ، الفيلسوف اليوناني أرسطو ، بقصيدتين عدتا من خيار شعرهما ، يقول الدكتور طه حسين عنهما ، — أي القصيدتين — وهو العلامة بشؤون اليونان ، وغير اليونان ، في كتابه شوقي وحافظ ، لو حولتا في مدح إفلاطون لكان أجدر ، فربما كانتا أكثر لصوقاً به من أرسطو ، على مابين الفيلسوفين الكبيرين من تباين في المذهب ! .

هذا وإنني إذ أقرر ذلك ، فانني أعذر القدامى ، فهم قد وفقوا ، إلى أبعد الحدود ، في تصوير عصرهم ، وأوافق البستاني ، في مقدمة ترجمته لالياذة هومير ، إذ يقول في الصفحة ١٢٠ : « فجاء شعرهم — يعني العرب — مثالا صادقاً لبداوتهم وحضارتهم ، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم ، وآثارهم وما بقي إلاّ شيء من شعرهم ، لتيسر للباحث أن يستخرج منه

وصفاً كاملاً لجميع أحوالهم ، كما استخرج الباحثون كثيراً من غوامض جاهلية اليونان ، من شعر هوميروس » .

وأوافق الدكتور طه حسين ، على ما جاء في كتابه « من حديث الشعر والنثر » إذ جاء مطابقاً ، لما ذهب إليه البستاني :

« إذا قرأتم قصيدة من شعر جرير أوالفرزدق أوالأخطل ، فأنتم ترون العرب في البادية ، وتسمعونهم يتحدثون ، وتحسون حياتهم كما تحسون أنفسكم ، ولا تكادون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم (!) فاذا لم توجد عندنا إلياذة أوأوديسا ، فليس من شك أن ما أدته الالياذة والاوديسا ، قد اداه لنا الشعر القديم من تصوير الحياة الاجتماعية ، وحياة الابطال » .

أما في القرن العشرين ، وبين يدي الحضارة التي تبهر العقول ، وبين يدي الأحداث التي تكاد تنطق الجماد ، يقوم فينا شعراء يترنمون بهجة البيان والعلم ، وظلال الرقتين ، ويمعنون في تصوير العصور القديمة ، ووصف جغرافية الحجاز ، ويلحون في القول فيها ، مصرين على أن القدامى قصروا في تصوير عصورهم ، فيأبون الا مشاركتهم فيها ، ناسين أومتناسين أن الشعر العربي ، يجب أن يصبح عالمياً فيترجم إلى آداب الأمم الأخرى ، ويعبر عما يجيش في صدور الشباب العربي من توثب نحو الحريـــة ، أوتمجيد للوحدة . أوتصوير لخلجات النفوس المتألمة ، أوتحليل للعواطف الراقية ، أو وصف للأحداث الضخمة مما نقرأ ونحسّ ونشعر ونرى ونسمع ، في آداب الأمم الأخرى ، بما فيها الهنود – فهذا ما لاأرضاه للشعر العربي ، وفي القلم بقية مداد . .

لاحب للشعر العربي أن يبقى عند الحد الوجداني الضيق ، أريد له أن يسمو الى مراتب الشعر التصويري ، والقصصي ، الى مراتب الدراما الفنية ، الى مراتب الشعر الملحمي ، إلى مراتب شعر التمثيل . .

انني أحمل مصباح ديوجينوس ، وأفتش عن هذه القيم ، والمثل ، في الشعر العربي . لقد استوقفني بريقها في شعر مطران ! . .

وحدة الموضوع

المتأمل في شعر الخليل، يحار من مقدرة هذا الشاعر العبقري، على إثارة أرقى ملكات النفس الانسانية، وتحريك ما استدق وخفي من عناصرها المكونة؛ فتثور في المتذوق جملة من المشاعر والأحاسيس الراقية، مردها قدرة المبدع الغريبة، على التعبير عن أسمى العواطف البشرية، وأكثرها تعقيداً؛ وتستنيق في المتذوق جملة من المعقولات العميقة، والادراكات الوسيعة، نتيجة صحيحة لثقافة الشاعر الشاملة، وامتداد أفق شخصيته المتعددة الجوانب، وتنطلق في المتذوق، خواطره رويداً رويداً، لتنسحب على جناح الخيال الرحيب، وتغيب مع الشاعر في نشوة من اللذة الفنية والروحية والعقلية جميعاً.

غير أن ثمة تنبيهاً هاماً: إن جمال شعر مطران، لايظهر من القراءة الأولى، ومن أجل إعطاء الحكم الجمالي، لابد من تملي الأثر الفني عنده والتأمل فيه طويلاً، وكذا كل مظهر جمالي: يفعل في النفس أولاً، ويشدها الى الحكم بجماله، ثانياً.

ومن أجل كمال النقد الأدبي، أوصي أول الأمر، باعادة النظر كثر من مرة، في شعر مطران، ليمكن إعطاء الحكم الصحيح، في فن شاعر العصر.

قد لانكون بحاجة الى ايقاظ ربة الشعر، فترنق من سماواتها

الأولمبية ، وتحط فيما بيننا ، لتدلنا على نواحي الشاعرية ، في شعر مطران فاذا سمعنا اليه قطعته الفنية التالية التي تحمل اسم « عين الأم ، أو ، المرآة الناظرة » :

عاجت بروض في الأصيل تطوفها ... كمليكة طافت معاهد حكمها
حسناء أمرها الجمال فانشأت ... في أيكها الأطيار تخطب باسمها
والحسن أكمل مايكون شبيبة ... في بدئها ، وملاحة في تمها
سترت بأخضر سندسي جيدها ... فحكى المحيا وردة في كمها
وتمايلت في ثوب خز مورق ... غصناً وهل للغصن نضرة جسمها
فاذا دنت في سيرها من زهرة ... همت بأخذ ذيولها وبلثمها
أو جاورت فرعاً رطيباً لينا ... أهوى بمعطفه ومال لضمها
وتحفها مقل الورى فيخزنها ... بحيائها ويشكنها في وهمها
كالنحل طفن بزهرة فاسعنها ... ورشفن منها مارشفن برغمها
حتى إذا حلىّ العياء جبينها ... بندى وأخمد جمرة من عزمها
جلست تقابل أمها وكأنما ... كلتاهما جلست قبالة رسمها
والروض ساكنة إلى نسماتها ... تصغي لطيب حديثها ولثمها
إذ هبّ فيها عاصف مالت به ... عذباتها حتى التقين بنجمها
وتناثرت ضفر الفتاة غمائماً ... سترت عن الأبصار طلعة نجمها
فتحيرت فيما تحاول وهي قد ... أعيت بلا مرآتها عن نظمها
فدنت تحاذي أمها وتناظرت ... بعيونها وجلت سحابة همها
وكذا الفتاة إذا أضلت ساعة ... مرآتها نظرت بعيني أمها

نرى أنه يستوعب مشهداً عابراً من مشاهد الحياة اليومية فيتملاه

ثم يفيض به عن شعوره ووجدانه. فاذا هو لوحة فنية ناطقة، لاينقصها طول ولا عرض ولا عمق، ولا حركة ولا لون ولا شكل.

وبعد، فلن يفوتك أن تدلل، على الوحدة الفنية، التي تلف هذا الأثر الفني لفاً، فأنت لو نزعت منه بيتاً واحداً لظهر لك النشوز؛ فالصور الفردية الجزئية التي يتألف منها الشكل العام، تأتي متلاحقة متلاصقة بانتظام بديع، وتسلسل طبيعي، متجددة مع تجدد الأبيات، كدت أقول، مع تجدد الكلمات!.

أما المبنى، فرائق عذب، وإذا تلمست التشابيه والاستعارات، التي يحفل بها شعر العرب، فانك، ولا شك واقع على أرقاها وأصفاها، في كل بيت لابل في كل شطر:

سترت بأخضر سندسي جيدها فحكى المحيا وردة في كمها

ولن يفوتك أخيراً ملاحظة الوحدة الفكرية، التي هي نتاج العقل التركيبي، فالشاعر لم ينفض يده من الأثر الفني، إلا بعد أن توجه بفكرة توجيهية، حلوة:

وكذا الفتاة إذا أضلت ساعة مرآتها نظرت بعيني أمها

وليس غرضي من القصيدة سوى النص، على الوحدة الفنية، وحدة الموضوع، التي أرى أن خليل مطران، كان أول — وبشيء من الغلو — وآخر، من وفاها حقها في أدب العرب.

ومهما تفه المحرض، فشاعرية الخليل الفياضة، تجعل من الغرض التافه موضوعاً خطيراً بالنسبة للمتذوق، ويبقى محافظاً على وحدته وانسجامه،

مهما بعد مداه ، ومهما تشعبت سبله هذه قصيدته مثلاً ، « من غريب إلى عصفورة مغتربة » نظمها في جنيف ، بقرب تمثال جان جاك روسو ، وقد رأى الشاعر على شجرة ، طائراً يشبه أن يكون مصرياً . أما المحرض (فعصفورة !) وأما القصيدة فتربو على العشرين بيتاً بعد المئة ، وأما أنها من الفن المصفى ، فهذا مالا شك فيه ، فاسمع اليه ، ولا تنس مافي المطلع من مجد :

يامن شكت ألمي مي طيبته في مسمعي
شكواك ألطف بلسم لجراحة المتوجع
ما أعلق الشدو الرخـــيم بكل قلب مولع
غني أهازيج النوى وعلى نواحي أوقعي

ثم استمع إليه ، بعد زفرته تلك ، في تساؤله الحلو ، وقد اشتبه عليه ، بين أن تكون العصفورة مجلوبـــة من مصر الاتجار ، أو قاطعة من قـــواطع الأطيار :

بنت الكنانة ما رمى بكِ بين هذي الأربع
فيهم اغتربت وكنت في ذاك الأمان الامنع
أحملت محمل سلعة جلباً ، بغير تطوع
ففررت من قفص الكفـــيل إلى الفضاء الأوسع
وبودك العَوْد القريـــب لسربك المستمتعِ
في مصرَ مصرخة اللهيـــف وملجأ المتفزع
مصر السماءِ الصحو مصـــرِ الدفءِ مصرِ المشبع

حيث المراعي والندى للمرتوي والمرتعي
أم أنت من تلك الجوالي في الفصول الأربع
لاتعرفين من الزما ن سوى المكان الممرع
تثبين من متربع أبداً إلى متربع...
في السرب أنى سار لا تخشين سوء الموقع

ثم انظر إليه، وهو يصف جماعة الطير، اذ تهجر مرابعها. فلا تخطيء في الشاعر الكبير، النظر الثاقب، والملاحظة العميقة، التى ترى في السرب أشياء، لايراها سوى كبار الشعراء.

السرب مافي السرب من عجب لذي قلبي يعي
تنضم حين جلائه اشتاته في مجمع
من غير ميعاد تقد م للرحيل المزمع
فاذا علا أزرى على سرب السفين المقلع
آلاف آلاف بغـــير تلكوءٍ وتضعضع
وبلا هزيز تقلقل وبلا أزيز تخلع
وبلا اصطدام في الزحا م محطم ومصدع
ان تلتئم فمرورهـا كالعارض المتقشع
أو تفترق فهي الجيو ش بقادة وبتبّع (١)
كل يسير ولا يخا لف، في الطريق المشرع
كل يجاري رأيه والرأي غير موزع

(١) تبع: جمع تابع

كل كربان يديـــــر زمام فلك طيع

ويعود ليوصي الطائر، ويغريه، بالعود إلى وادي النيل:

باليمن ياغريدة الـــــوادي إلى الوادي ارجعي
إني لاسمع في غنـا ئك رقرقات الأدمع
تلك البراعة ما استتمـــــت في جمال أبرع

ولا يفوت الشاعر، وهو المصور الماهر، والمثال الذي يكاد يلين الرخام على يديه، من أن ينحت لنا تمثال الطائر الغريد وينفخ فيه من حياته:

جسم كحُقِ للحيا ة معرق ومضلع
يغشاه ثـوب دبجت ألوانه يد مبدع
المتن يزدهر ازدها ر الأخضر المتجمع
والصدر فيما دونه يزهى بأحمر مشبع
والجيد زِينَ من النضا ر بحلية لم تصنع
دع كل نقش في الخلا ل موشم ومبقع
ودع القوادم تستقلّ بريشهـا المتنوع
أيات خلق من يُجل نظرا بها يتخشع ...
لولا الحراكِ لخيلَ من ثمر هنالك مونع ...
يرنو بفائضتي سنىً كالجوهر المتطلع
يسهو بغاشيتين تنـــــسدلان سدل البرقع
متطاول الخدين . في وجه حديد المقطع
منقاره كقلامـــــتين من الظلام الاسفع

وتأتى عاطفة الشاعر ، خلال القصيدة ، هادئة رائقة ، متناسقة ، فهو يريد أن يقول شيئاً ، ولكنه يتأنى فيه ، ويهيء القارىء له ، فطبيعته الفنية المتركزة على اطراد المشاعر ، وانسجام الخواطر ، وانتظام الخيال وعمل العقل ، تأبى عليه أن يرسم لنا عاطفة حب بدائي ، وإنما يريد أن يبرزها رافلة ، كما يحسها فنه ، لا كما اعتاد الناس سماعها ، وهكذا يتطاغى حنين الشاعر لمصر ، رويداً رويداً ...

أخت الشوادي الخضر حا | نت لفتة المتنوع
بك نزعتي نحو الحمى | وعداك قيدي فانزعي
حيث الضحى متساكب | كطلا بكف مشعشع
والريح تحضن آخر النغـ | ـمات حضن المرضع
والدوح مياد الرؤو | س مشيع بالأذرع
وتعطف الأفنان شبـ | ـه تقصف في أضلع

وكأني بالشاعر ، يريد أن يستثير همة غريدة الوادي للرجوع إلى وادي النيل ، فلعله يريد أن يحملها رسالة ، إلى مرابع أنسه ، فراح يطري قدرتها على التوثب ، وأن لها في مجال النفع .. أمجاد وأمجاد :

خضت الضياء على غوا | رب موجه المتدفع
تتصاعدين وما الشها | ب المستطار بأسرع
يرمي جناحاك المها | وي بالشعاع السطع
وتراع رائعة النها | ر لو هجك المتفرع
مزقت أستار السنى | عن عالم متقنع

أنزلت هولاً في قراه وفي الذرائر أجمع
انظرت عن كثب إلى ملأٍ هناك مروع
هي وقعة في الجو بيـــن هبائه المتلمع
هبت خلائقه على ذاك المغير المفزع
فى أسد غاب تستطير وفي ذباب وقع

وما يدرينا فلعلها تتيه بغارتها الجوية، وتزهو بترويع عوالم الجو، كزهو أعظم الفاتحين :

تيهي بغارتك السنية في المجال الأرفع
ماشأن كسرى في الفتو ح وما مفاخر تبع
لاصفو أروع من تحير خصمك المتضعضع
لاسلم أبهج من تها يل ركنه المتزعزع
أمم الأثير جمالها في أن تراع فروعى
فادا مضيت ولم تصب بملائك المتوقع

ويتطاغى هنا، حنين الشاعر المفجوع، فتنسحب نفسه عبر المكان والزمان، وتنطلق ذكرياته الحبيسة، من مكامن النفس الشاعرة، فيحمل الطائر الغريد هموم الكبد الحرىّ، ورسالة القلب المقيم على العهد :

سيري وولي صدرك الـــــمشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته وشرعت أعذب مشرع
وشدوت ما شاء السرو ر على ارتقاص الافرع
عوجي ببستان هنا لك في العراء مضيع

صفصافه متناوح والنور بادي المدمع
لي في ثراه دفنية كالكنز في المستودع

لقد أحب الشاعر في شبابه، وفية، هصر القدر غصنها الطري، وهي لما تزل في ميعة العمر، ودفق الشباب، ففجع الشاعر الشاب، بحبه الغض، فبكاها في قصائد من الشعر المخلد؛ لكن البكاء ليس كل شيء، هل جاءك أنه مات عن ثمان وسبعين عاماً، وما تزوج:

تخفي الأزاهر قبرها عن أعين المستطلع
كانت مثالاً للمحا سن في مثال أروع
فتحولت لطفاً الى طيف أرق وأبدع...

أما رسالته، مع غريدة الوادي، فلا شك، أن الشاعر غمس قلمه بكبده عندما سطرها:

قولي له ان جئته بأنس هذا البلقع
أتحس في هذا الثرى نبضان قلب موجع
هذا حنين من فؤا د محبك المتفجع
عدت العوادي جسمه عن قرب هذا المضجع
فمضى بأحسن مايكو ن أخو الأسى وبأجزع
ونوى الضريح أضره كنواك يوم المصرع
نعم الشفيعة أنت لي عند الملائك فاشفعي
من لي بصوت مثل صو تك مبلغ لتضرعي
ان الذي أبكيه وهـــو من النعيم بمرتع

كم زرته في يقظة وألمّ بي في مهجع
يدنو إليّ تنزلاً عن عرشه المترفع
وكم التمست لصوته رجعاً فحقق مطمعي
هذا الوفاء وفاؤه فادعيه لايتمنع
بهتاف لوعتي اهتفي وصدى حنيني رجعي
حتى يجيب، فانصتي بضميري المتسمع !..

أرأيت إلى شعر الحضارة كيف يكون، وعرفت لمادافضل طه حسين، شاعرَ العصر على المتقدمين والمتأخرين، لم يستثنِ منهم أحداً؛ غير مجمجم، ولا آبهٍ أن يعتب عليه أحد.

ثم انظرت الى تلك العواطف المصطرعة، على صفحة نفس الشاعر، والى المزيج العجيب من الحنين والهيام، واللوعـــة والحزن والألم، واشتات المشاعر والأحاسيس المفرحة والمحزنة، كيف لعب بها العقل المصفي، والذوق المهذب، فضبط جريانها في تياراتهـا. فتدفقت منسجمة مرتبة، دون تدافع أوفوضى، ودون تقديم أوتأخير، واذا المظهر الموضوعي التافه، عصفورة على شجرة، يخرج من تحت اشعة شمس مطران، رائقاً عذباً، كماء بحيرة بين الجبال، جبال سويسراً، التي نظم الشاعر عندقممها قطعة من الحياة، ورمز لها بقصيدة من الشعر!..

موضوعية

مطران، شديد التعلق بعرض الظواهر الطبيعية، كما هي، وتقريرها بصفاتها المميزة لها في العالم الخارجي، متجرد إلى أبعد حدود التجرد، وهذه الصفة من أهم ما يميز الفنان الفنان.

والسبب الذي قعد بالشعر العربي عن التصوير الاّ في بعضه النادر، إنما هو عدم تجرد الشاعر العربي، فتراه إذا رسم، يرسم نفسه، واذا مدح يخلع على الممدوح الصفات التي يحبها له، لاالصفات التي تميز الممدوح بها. وقد مرَّ بك كيف جعل شوقي، مصطفى كامل، في رثاته له «يتيمة الأزمان!» إمامَ دين. بينما التصوير والرسم، يقتضيان بالضرورة التجردَ والموضوعية؛ والحاجي على هذه الناحية الموضوعية، وضرورة وجودها، لايعنى أنني أريد الشاعر مجرد آلة فتوغرافية، تنطبع عليها المظاهر الخارجية، ولا يكون لها فيها اية فاعلية؟ لا، فأنا اذ أقرأ الخليل في قصيدته «هدايا العروس» حيث يهنئ إحدى الحسان بزفافها ومطلعها:

وفد الربيع اليك قبل أوانه ... يهدي حلى جناته الفيحاء
من كل بارعة الجمال يرى بها ... شبه لبعض خلالك الحسناء

إلى أن يصف فرائد اللؤلؤ تزين صدر الغادة:

هذي مليكات اللآلىء اقبلت ... تفتر عن قطع من اللألاء
باد صفاء القطر في قسماتها ... وتنافس الألوان والأضواء
ظلت تكون في حشى أصدافها ... كتكون الأنوار في أفياء
وقضت عصوراً سيدات بحارها ... يسعى لها من أبعد الأنحاء
حتى إذا حملت اليك سبية ... مجلوبة في جملة الآلاء
وجدت عزاء في رحابك طيباً ... عن عزها الماضي وأي عزاء
بلقائها حسناً يضاعف ما بها ... من رونق ونفاسة وبهاء
وجوارها شيماً كرائم صنتها ... في خدر عصمتها عن الرقباء

عندما أقرأ ذلك للخليل ، أحس بالموضوعية القوية ، والتجرد المطلق الذي يطبع الاثر الفني ، بشكل لامجال لانكاره ، باغماض البصر أو البصيرة إذ تختفي ذاتية الشاعر وأفكاره ، وصفات شخصيته المميزة وراء ستار من الموضوعية ، كثيف . ولا أستطيع من جهة مقابلة ، بأن أعتقد أن الآلة الفوتوغرافية ، زعيمة بتأدية أمثال هذا الاثر الفني ، فأخرج إلى أن الشاعر ، لم يكن ينسخ نسخاً مطابقا للأصل ، وإنما كان يترجم الى لغتنا ، لغة الحياة الخارجية ؛ فالطبيعة تتكلم بلغة لايفهمها كل الناس ، ومهمة الفنان أن ينقل للناس ، هذه اللغة العجيبة الغريبة ، التي لايفهمها كل الناس ...

وعن ذلك شرح لنا الشاعر قصة اللآلىء المضيئة على الغادة العروس ، فكانت له غوصة السباح الماهر ، إلى أعماق البحار ، حيث تتكون مليكات اللآلىء ، في أحشاء الاصداف ، فاستباها من رحابها الفسيحة ، ليزين بها صدر الحسناء المدلة . وما أحلى أن يعزي الشاعر اللآلىء ، عن تركها خدورها المصونة ، في حشى أصدافها ورحابها الفسيحة في أعماق بحارها ، إذ ستحل صدراً أكثر صيانة ، وأوسع رحابة ، هذا إلى مجاورتها الحسن البارع الذي سيضاعف من جمالها ، والشيم الكريمة التي ستصونها عن أعين الرقباء !.

والقصيدة كلها ، من هذا الطراز الموضوعي النادر ، فالمجد كل المجد لهذا الفكر المولد ، ولهذه المخيلة الخالقة !..

والتجرد في النقل صفة مميزة يطالعك بها دوماً شعر الخليل ،

وللشمس في المنتهى مغرب رأينا به آية من عجب

رأينا من الغيم طوداً رسا على أفقها وسما واشرأب
بجسم ظلام وقمة تبر وسفح تعاريجه من لهب
كأن الأشعة اثناءه مغاور في منجم من ذهب
وراع نواظرنا أبل مضى قرنه صعداً وانشعب
تنفت يرنو بياقـوتتين وسال دماً صلبه والذنب
وكم من جنان وكم من قرى وكم من سروج وكم من قبب
تصاوير يصنعها ماهر من الغيب يبدعها ما أحب
يظل ينوع أشكالها دراكاً ولا يعتريه نصب

فهو كما ترى في «مغرب شمس» يرسم لوحة مضبوطة الألوان، واضحة الأشكال، بينة الأبعاد، متناسقة الخطوط والظلال، وقد أعمل فيها خياله الرحيب، تنميقاً وتلويناً وحركة، فاذا هي صنع فني من هذه الروائع التي يرسمها المصورون الكبار، أريد أن أقول، يعجز عن تصوير أمثالها المصورون الكبار !..

وقد تتسع دائرة المظهر الخارجي، فيشمل مدى واسعاً من المكان، والزمان، واشتات الحركات، وخليط الألوان؛ فتبقى طبيعة الخليل الفنية، مع ذلك، أو فوق ذلك، ذات قدرة عجيبة على استيعاب أدق التفاصيل والجزئيات، وتركيبها ضمن إطار الوحدة الفنية الشاملة، وقصيدته «فتاة الجبل الأسود» مثال من روائع لاتحصى:

ويوم كأن شعاع الصباح كسته مطارف من عسجد
تفرقت الترك فيه عصائب كل فريق على مرصد

يسدون كل شعاب الجبال على نازليهن والصعد
أسود تراقب أمثالها ولا يلتقون على موعد
وكان عداهم وهم دونهم بعدّ الجنود وذات اليد
يوافونهم بغتات[1] اللصوص ويرمون بالنار والجلهد
ويفترقون تجاه الصفوف ويجتمعون على المفرد
ويمتنعون بكل خفي عصي على أمهر الرود
وأي رأى شارداً يختلسه وأي رأى وارداً يصطد
ويلتقمون جناح الخميس إذا العون أعيا على المنجد
منامهم جاثمين وقوفاً ولا يهجعون على مرقد
وما منهم للعدى مرشد سوى غادرٍ ، ساء من مرشد
إذا لم يقدهم إلى مهلك أضل بحيلته المهتدي
ويعتسف الترك في كل صوب فهذا يروح وذا يغتدي

ما أروع ساحة المعركة ، ينقشها أزميل المثّال الخلاق ، في الصباح الخضيب ، فان كنت لم تشهد حرب العصابات ، ولم تتعرف كيف صادم ثوار الجبل الأسود ، القلائل ، جنودَ الترك الكثر ، فلا عليك إلاّ إعادة النظر ، إلى اللوحة البارزة ، المرسومة فوق ، كرة ثانية كما يقتضي شعر الخليل ، لتخرج بفكرة جامعة ، عن اللوحة ، التى لاينقصها شيء من صفات الفن الرفيع .

(١) بغتات : م. بغتة .

ملاحم

ومع أنني أسوق القصيدة في معرض النص على موضوعية شاعر العصر، فأنا أنشق منها نفحات شعر الملاحم، الذي يجعل الخليل بجدارة وحق، أون شاعر عالج المـــوضوع كما يجب، في أدب العرب، فشعر الملحمة وهـو يقتضي التجرد والتجريد، والتصور والتصوير، وعرض الحوادث البطولية بأمانة وصدق، وبعد خيال، لايرى محققاً صفاته لدى أي شاعر عربي، كما يرى لدى الخليل.

أجل أذكر أن عنترة يقول:

لمـا رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه، حتى تسربل بالدم

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

والخيل تقتحم الخبار عوابساً ... مابين شيظمة وأجرد شيظم

كما لايزال يعلق بذاكرتي قول المتنبي:

أتوك يجرون الحـــديد كأنما ... سروا بجيـاد ما لهن قـوائم

إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها والعمائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي اذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث إلاّ التراجم
فلله وقت ذوب الغش ناره فلم يبق إلاّ صارم أوضبارم
تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا وفر من الفرسان من لا يصادم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم
حقرت الرديني حتى تركتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم

وقد يعلق بهذه الذاكرة أشياء اخرى ... ولكنني لا أستطيع أن أنكر أن الصورة عند كليهما، ناقصة بادية النقصان، والذاتية تطبع الأثرين الفنيين. بقوة وعنف محسوسين. لقد غاب شعر الملاحم عند عنترة، وراء ستار كثيف من جلجلة فروسيته الصاخبة، وغام وصف الملحمة عند المتنبي، وراء ستار أكثف من مدح سيف الدولة، الذي لا أدري، على التحقيق التاريخي إذا كان خاض المعركة، أو لم يخضها!..

ووصف اللهيب والدمار، من آثار المعركة، هو من صميم الشعر الهوميري، فلنستمع إذن الى أبي تمام في عمورية:

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجب

ألا ترى إذا كنت من طلاب الحقيقة ، أن الصورة قاصرة غاية القصر وأن أبياتها الخمسة تدور حول معنى واحد ، هي أن الليل صار من شدة اللهب ، نهاراً ؛ وكفى الله الفن صبراً ...

ولنستمع الآن الى الخليل ، في قصيدة ، يصف بها معركة « بينا » بين نابليون وبين البروسيين ، وهي من أوائل شعره واذا كنت تريد معرفة سنه بالضبط عندما نظم هذه القصيدة ، فليس إلا أن تتذكر أن الخليل ، ولد عام ١٨٧٢ ، وأن القصيدة ظهرت في مجلة « سركيس » البيروتية سنة ١٨٨٧ فيكون عمر الشاعر لما نظمها خمسة عشر عاماً ، ولذا فلا تعجب من الغرض « الاتباعي » الذي يكاد يطبع القصيدة :

لبروسيا في أرض «يانا» عسكر مجر شديد البأس وافي الزاد
وخيامه في الأفق ماثلة على ترتيب سلسلة من الأطواد
نفرت طلائع خيله منذ الضحى تترقب الأعداء بالمرصاد
فأتوا كما يجري الأتي مشعباً في غير مجرى مائه المعتاد
وكأن نابليون في إشرافه علم على علم الزعامة باد
المجد رهن إشارة بيمينه والنصر بين يديه كالمنقاد
والفخر في راياته متمثل وطلائع العقبان في ترداد
فهيأ الألمان لاستقباله كالحائط المرصوص من أجساد
وعلا هتاف مازجته غمائم من سل أسلحة وركض جياد
ورنين آلات تكاد تظنها متجاوبات العزف بالايعاد

حتى إذا كمل العتاد تقاذفوا ... بالنار ذات البرق والارعاد
شهب ضخام آتيات والردى ... بمسيرهن ، ومثلهن غـــواد
تُلقي الرجال على الثرى قتلى كما ... يلقي السنابل منجل الحصاد
لله درهم وقـد حمي الوغى ... فتهاجموا كتهاجم الآساد
تدعو الجراحة أختها بصدورهم ... والسيف يتلو السيف في الأجياد
واذا التقى بطلان لم يتجندلا ... إلا معاً من شدة الأحقاد
وإذا جواد خر فارسه دعا ... بصهيله ذا حاجة بجواد
والموت في الجيشين غير مجامل ... يجتـاح بالأزواج والأفراد
يطوى الصفوف ويترك الدم آثره ... فكأنه فلك بيحر عبـــاد
مازال يفتك والنفوس زواهق ... وكأن تلك هنيهـة الميعـاد
حتى تولى الذعر جيش بروسيا ... فتفرقوا بين القفـار بداد
فسعى الفرنسيون في آثارهم ... بعزائم لا ينثلمن حـداد
واستفتحوا برلين وهي منيعة ... وقضوا بهـا الأيام كالأعياد!..

ربما لو شهدت الوقيعة ، لغـاب عنك بعض المشاهد ، في زحمـة الأحداث ، ولكن الشاعر ، بطريقة عرضه لها ، على رغم طفولته ، جعلك تشهد المعركة ، دون أن يفوت عليك شيئاً من دقة التفاصيـل وروعة الحوادث .

وبعد ، فقد تكون وقفت عند كثير من أبيات القصيدة ، لتتأمل ما فيها من المعاني النادرة ، والأخيلة البديعة ، والصور البارعة وقـد تكون اكبرت هذا الخيال الجديد في الشعر العربي ، لأنه مهما قيل عن سعة

الخيال عند شعرائنا ، فقد تقرر مني ، أنه لا يتعدى المحسوسات ، ولا يتفلت من نطاق الواقع ، بينما عمق الفكر ورحابة الخيال يستدعيان الانطلاق من المحسوسات إلى معنويات ، يتمثلها الذهن على شكل رائق .

فصورة الشهب الضخام الآتيات ، وصورة الشهب الضخام الغاديات ، في المعركة : صورة محسوسة ، أما كمال الخيال الشعري فتقرر عندما مشى الموت في ركاب الشهب ، فبرعت الصورة ، وبدت رائقة حالية وهكذا استقام للخليل أن يقول :

شهب ضخام آتيات والردى بمسيرهن ومثلهن غواد

وكذا تصوير الحقد والعناد بين المتقاتلين ، ظهر بصورة قوية في قوله :

وإذا التقى بطلان لم يتجندلا إلاّ معاً من شدة الاحقاد

على أن البيت الذي استوقفني طويلاً ، وجعلني في شيء من الحيرة والشك في أمر السن عند مطران ، هو قوله :

وإذا جواد حرّ فارسه دعا بصهيله ذا حاجة بجواد

فأنا افهم كيف استقام لشاعر العصر أن يبرز حقد الفرسان ، في مثل هذه السن ، ولكنني لا أدري أية مخيلة قوية لاهبة ، جعلته يشرك الخيول في المعركة ، فتتحزب كل فئة لمعسكرها ، بحيث إذا قُتِلَ فارسُ جوادٍ ، دعا الجواد المسيب بصهيله ، فارساً فقد جواده ، من رفاق صاحبه المقتول ، ليستأنف معه المعركة ، من جديد — هنا وثبة فكرية راقية ، بلغت حد الاعجاز ، وهي لا تواتي الشعراء كل آن بل لها حالات شديدة الندرة ! .

وكنت احب أن اسوق اليك شيئاً من ملحمته الخالدة « نيرون » ولكن آثرت التريث والكلام فيها لدى البحث في مطران ، شاعر الحرية ! .

أغراض جديدة

وهذه الأغراض المستجدة التي لم يألفها الأدب العربي ، تناولها الخليل ، فلبّين من أعطافها ، وصبها بقدرة وبراعة في قوافي الشعر العربي فاذا بها تنساق طيعة ، بين يدي الفنان الموهوب .

فلنصغ اليه في قصيدته النوارة ، أو زهرة « المرغريت » وهو يسائل أوراقها ، بعد أن كبر سناً ، أتحبه الحسان أم ليس يحببنه ؟.

وزهرة المرغريت ، كما تعرف ، يستخير أغرار الشباب من العشاق أوراقها واحدة بمعنى نعم ، والثانية بمعنى لا ، قصد معرفة ، إذا كانت تحبهم التي يعشقون ، أم لا ، عند نهاية العدد :

أراجع نفسي هل أنا ذلك الذي ... عهدت بأمسي أم أنا رجل ثان
علمت صنوف العلم درساً وخبرة ... فما لي بلغت الجهل في منتهى شاني
أراني بعد الشيب عاودني الهوى ... فردّ صبى الدنيا عليّ وأصباني
غدوت كأني ماعرفت حقيقة ... وهل أنا إن يدعُ الهوى غير إنسان
فيالي من كهل يرى وهو جاثم ... كطفل على شيء يقلبه حان
بكفي من النوار ذات أشعة ... لها قرص شمس زانه تاج ألوان
فبينا أجيل الطرف في قسماتها ... وثم فنون من جمال وإتقان
إذا أنا للتاج المنظم ناثر ... تباعاً ولي في ذاك ترديد صبيان
أسائل أوراقاً ، وياليت شعرها ... أتهواني الحسناء أم ليس تهواني؟

أرأيت كيف يمد الفكر الخلاق ، يده الى الموضوعات الجديدة ،

وكيف يمهد، لعرض العواطف المتناقضة، وكيف ترسم ريشة الفنان المبدع خطوط الصورة الرائعة، دقائقها وتفاصيلها، بانسجام كلي...

لقد أجاد شاعر العصر في وصف حقيقة النزاع، بين العقل الذي يشده إلى الاتزان والرزانة، وبين العاطفة التي تريده على الاستخارة وضرب الرمل والتعلق بالوهم، وخلص إلى تقرير حقيقة هذا الضعف الضخم في النفس الانسانية، وهو حب استطلاع المجهول بأي ثمن، ومحاولة التمسك بأماني الشباب، وتطمين رغبات الصبا. إن هذا الميل القديم يمور على حفافي القصيدة، وضفافها بقوة وعمق، وروعة واتساق.

عد الى تلاوة القصيدة، غير مأمور، ولعلك قد فعلت، فلا يفوتك ملاحظة عمق استيعاب الشاعر، لمشاعره واحساساته، ثم قدرته على التعبير عنها — وربما لم تنسَ أن الشاعرية الحقة، تحسس عميق بالحياة وتعبير أعمق عنها.

وقد يتوسل، إلى من يحب، بوسائل بارعة فنية، لاتعثر لها على شبه أثر في شعر العرب، فهو في قصيدته «في الغابة» يصور لنا صورة الشاعر يتنقل في غابة مرتفعة باحثاً عن زهرة غير موجودة:

مابالـه ماأصابه ماسؤله في الغابه
هب الغداة ووالى الى الزوال اضطرابه
تهفو الغصون اليه أو تنثني توابه
موشحا بشعاع أو مستقلاً سحابه
أو خائضاً بحر في يشق شقاً عبابه

تفر بين يديه أهلة لعابه
حتى إذا الشمس مالت بين الأسى والدعابه
تلقي وداعاً بهيجاً والظل يلقي كآبه
أجرت على منكبيه حلى نضار مذابه
فلاح كالطيف لولا هز النسيم ثيابه
ماذا توخيت يامن أضوى العناء إهابه ؟
— أردت في الزهر بكرا فتانة خلابه
عن كل بنت ربيع بحسنها تتنابه
براقة عن ذكاء ضحاكة عن نجابه
فواحة عن خلال ذكية مستطابه
انيبها في وفاء عني أعز إنابه
لدى أميرة فضل مصونة وهابه
بها جمالٌ ونبلٌ إلى عُلىً ومهابه ...
حتى اذا طال كدي ولم أفز بالطلابه
نظمتها من خيالٍ وصغتها بالكتابه
علّ الهدية رسماً تثيب بعض الاثابه ...

ونقل الأغراض الاوروبية الى الشعر العربي ، من المظاهر المألوفة في شعر الخليل ، فهو لا يفتأ يطالعنا بهـا ، في كل مناسبـة ، وقصيدته « بنفسجة في عروة » حيث « ألف الشاعر في ذلك العام أن يضع زهرة

بنفسج في العروة التي تعلو الجيب الأيسر من ردائه ، وسر ذلك أنه كان يحب سيدة تحب البنفسج ولا يبوح لها بأمره ، إلا على هذه الصورة » دليل من مجموعة ، على هذه الظاهرة التي تطبع شعر الخليل :

راودني الطفل حين أبصرها عنها ، بما للصغار من حيل
مطوقاً في التماسها عنقي وسامحاً ما أشاء من قبل

•

فاستلها من مكانها وأنا أدفعه دفع من يرغبه
كم من حبيب وأنت تبعده تصده صد من يقربه

•

من ذلك الطفل ؟ صورة بلغت بها العنايات غاية الحسن
فظن ماحسن أمه ولقد أقول بالغ ماشئت بالظن

•

أعطيته زهرتي فقبلها هنيهة محسناً سياسته
حتى اذا ماقضى لبانته وكاد يبدي لها شراسته

•

توثبت أمه ، وقد لحت ما كان منه خفيفة القدم
وارتجعتها منه مبالغة لديه بالترضيات في الكلم

•

فروت العين من محاسنها وانتشقت عطرها على مهل
ثم أعادت إلى ضائعتي مورداً وجهها من الخجل

•

أأصلحت من وليدها خطأً ... وليس فعل الوليـد بالنكر
أم أدركت ما أكن من شغف ... بهـا ، فباحت بأنها تدري

•

أم سألت جارة الفواد لتسـ ... ـتطلع منهـا صحيح أخباري
وليس في المنبئين أصدق من ... جارٍ بأنبائه عن الجار

•

أم شكرت لي ، على تظاهرها ... بجهل وجدي ، صبري على وجدي ؟
أم أشعرتني بالطف مافعلت ... بأن ماعندها ، كما عندي ؟

•

كنت أحب أن أقف معك ، على كل بيت في القصيدة ، ولكنني أثرت أن أتركك منفرداً بالشاعر ، لتتملى على مهـل عصارة الفن ، وخلاصة شعر الحضارة ! ..

عواطف راقية

وثمة أمر آخر مهم، كله أهمية، يعرض عند البحث، في تجديد الخليل، فالانسجام الرائع بين الفكر العميق، والخيال الرحب، والعاطفة المهذبة المصقولة، من الصفات التي يمتاز بها مطران على غيره من شعراء العرب، الذين هم، تطبعهم على العموم، عاطفة مشبوبة، وموسيقية رنانة، وإرسال على السجية. قد يقول بعض العارفين بالشعر، أليس يؤدي إلحاح الخليل، في الغوص على المعاني النادرة، واشتعال رأسه فكراً — لا شيباً — الى القضاء على اشتعال قلبه، فتبرد فيه جذوة العاطفة التي يفرض فيها التوهج والائتلاق، وتخفت فيه الموسيقية، التي يفرض فيها ارتفاع التوتر، وصخب الجلجلة، وشدة الاغراء؟.

هذا وهم محض، يتناقله فينا الأحفاد عن الأجداد، معشر العرب ينبغي لنا إعادة النظر فيه، شأنه شأن أكثر مفاهيمنا، وعاداتنا، وأوهامنا.

ليست الحياة الانفعالية كل شيء في الشعر، هذا أولاً، وليست النزوات، والغرائز كل شيء في الحياة الانفعالية، هذا ثانياً.

فالشعر، تساوق بين الفكر والعاطفة والموسيقى، من جهة؛ والعواطف منها البسيط الذي ينحل الى درك الغريزة، ومنها المركب الذي يسمو إلى مدارج الفكر، من جهة أخرى.

وأخيراً، فشعرنا العربي، على عمومه، يجنح إلى العاطفة، أكثر من جنوحه الى العقل والى العواطف البسيطة، أكثر منه الى العواطف

المركبة . في عالم الطبيعة ، أشياء لاشك في غموضها ، ومهمة الفنان توضحيها وجلاؤها ، وفي عالم النفس نزوات وخلجات واحساسات ، يصح وصفها بالغموض تارة ، والفوضى أخرى ، ومهمة الفنان صقلها وتهذيبها ، لانشرها عارية كما هي ، إذ يجب الاحتيال لها ومراقبة الفكر المستمرة عليها ، لأنه بدون ذاك التمهيد ، وهاته المراقبة ، تأتي العاطفة عمياء فورية تخاطب العواطف الابتدائية ، أكثر مما تخاطب المدارك المتطورة ، في النفس الانسانية ؛ وإلا فأي ذوق مترف يستمرىء المتنبي في فخره ، وهو يرثي جدته ، أو أمه على قوله :

فان لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما

أو أي معنى لقول البارودي ، في مطلع القرن العشرين ، عصر الحضارة :

إذا استل منا سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

إنني لاأجد رداً لهذا الكلام ، سوى بيت من الشعر أظنه لأبي ماضي :

وترانا نفخر بالصوارم والقنا ورقابنا ممدودة للفاس

أو أي ذوق رفيع يستطيع أن يهضم شوقي في القصيدة التي كنت أود لورثى فيها الشيخ محمد عبده ، وهي مرثاته في مصطفى كامل :

وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت فأعيد سيرتها الى الدوران

كانت الشموس قد هوت وتناثرت مرة ، على يد أحد الزجالين عندنا في لبنان ، وقد نسيت اسمه إذ يقول :

مطعوج بطن السما من راياتنا وتهرهروا النجمات من شلفاتنا

أما الآن فلتقر عوالم الكواكب أعينها ، إذ تيسر لها أميرنا الذي سيعيد سيرتها الى الدوران ! .

والعواطف الخام ، بالنسبة للعواطف التي صقلها الفكر ، كنسبة بكاء الطفل إلى بكاء الراشد ؛ صحيح أن بسمة الطفل أودمعته ، تسر أوتؤلم ، بحسب الظاهرة ، ولكن ليس صحيحاً أنها تحمل قوة التعبير التي تلمحها في بسمة الراشد ، أودمعته . وكذا الفنان الحق هو الذي يتغلغل إلى أعماق العاطفة بفكره ، فيذكر باعثها وناتجها ، فلا يكفي مثلاً أن نبتسم ، ولكن يجب أن نعرف لماذا نبتسم ، ومتى نبتسم ، وكيف نبتسم ؟ .. ولايكون ذلك إلا بتدخل الفكر ، وعمل العقل ، وتصفيته المستمرة الدائمة .

وعن ذلك كان الشاعر العبقري هو الذي تتساوى ، وتنسجم فيه جميع ملكات النفس ، وكان أروع الشعر ، وأقربه إلى روح الحضارة الراهنة ، ما اجتمعت فيه الحياة الذهنية العميقة ، إلى الحياة العاطفية المضطرمة إلى الحياة الاتساقية المترفة ، على قدم المساواة .

وشعر مطران ، تنساق فيه العواطف المركبة ضمن مجارٍ من الفكر ، وسيعة ، ويبدو تحكم العقل فيها جلياً ، لذلك تأتي من نوع الفن الرفيع ، من شعر العصر ، من أحدث انواع شعر العصر . . .

وعاطفة مطران ، كفكره ، تتصف بالعمق والاتساع ، فتهدف على الغالب إلى غرض توجيهي نبيل . أو مثال إنساني كريم ، على نقيض اكثر شعر العواطف في أدبنا الحديث ، واكثر القديم فهو يدور في معظمه حول افتخارات ذاتية تنزلق إلى مهاوي التبجح الذي يصح وصفه بالفراغ . وهو لاينطوي على شيء ؛ أوحول غرائز نهمة ، تنحط إلى مرتبة

البهيمية ، أو نزوات طائشة تتردى في مزالق الاسفاف والتبذل .

وتتسع شقة الخلاف بين شاعر العصر ، وبين شعرائنا الآخرين ، حول مفهوم العاطفة بذاتها ، فدافع الكرم مثلاً ، في الشعر العربي ، هو التوق الملح ، للذكر الطيب ، وحسن الاحدوثة ؛ بينما محرض الكرم ، والدافع إليه ، بالنسبة للخليل ، فانما هو رفع الألم من ناحية موضوعية ، واراحة النفس من ناحية ذاتية :

أعطي ، ولا أُعطى . واستوفي حقوقي ناقصة
ونيتي للخير في كل مقام خالصة

•

أنا الذي يجده العافي إذا خطب ألم
مداركاً ومدركاً بقلبه معنى الألم

وإذا وصف الخليل غرفته الفقيرة ، وسريره الملتوي الأضلاع ، وكتبه المتناثرة وثيابه القليلة المبثرة ، في خزانتها الفارغة ، فذلك من باب تقرير الحقيقة الواقعة ، لاشكوى من الزمن ، ولا عتاب لأهل الوطن ، ولا نقمة على الدهر البخيل ! . ففكره ، وهو يتدخل في عواطفه يخرج إلى حذف تلك النزوات القاصرة في سلم العواطف العام .

لست بما أقوله معاتباً أهل الوطن
إني امرؤ فوق الشكاة ، ساء ما ساء الزمن

وما أحلى الخليل ، إذ يعتذر عن بعض أبيات في الفخر ، وردت في قصيدته هذه « عيد الميلاد » :

أضعت وقتاً من عزيز الوقت في التمدح
ما أميل المرء ، وإن عف إلى التبجح

وترد له ، هذه الملاحظة ، على هامش الصفحة ٢٥٠ من ديوان الخليل الجزء الثاني : « تسامح الشاعر في وصف نفسه كما وصف ، لانه حين نظمها ، كان يعدها لتطالعها والدته » . واذا ملاحظته تكاد تكون أروع من قصيدته فتأمل ! . لاشك ، أنه في انصرافه عن التبجح والتمدح ، خلص الشعر العربي ، ولا ريب ، من شر الوان القول الذي لاطائل فيه...

أعود إلى القول ، أن أنسحاب العاطفة ، مهما اشتدت ، على صفحة وجـدانه الصقيله الرحيبة ، تترك برحابتها ، الوقت كافياً لابقاء القيم النادر منها ، وحذف المبتذل المسف ، المشترك بين الكثرة من الناس .

لعلك تذكر ، في معرض حديثي عن حياة الشاعر ، حكاية قصيدته التي أنشأها في « ساعة يأس » وعرفها القراء فيما بعد بأسم « الأسد الباكي » ومن يتحدث عن مطران ، يتحدث بالضرورة عن « الأسد الباكي » وعن الانفعالات العنيفة التي عصفت بأطواء نفس الشاعر ، عند خلقها ، وكيف تمكن بعقله المدبر ، من تصفية كل ألوان الاحساسات ولعل القصيدة ، تكشف لك بالتالي ، عن الآماد الوسيعة التي ، تترقرق فوقهـا نفسية شاعر العصر :

دعوتك استشفي اليك فوافني ... على غير علم منك إنك لي آس
فان ترني والحزن ملء جوانحي ... أداريه فليغررك بشري وايناسي
وكم في فوآدي من جراح ثخينة ... يحجبها برداي عن أعين الناس

إلى عين شمس قد لجأت وحاجتي — طلاقة جو لم يدنس بأرجاس
أسري همومي بانفرادي آمناً — مكايد واش، أو نمائم دساس
أرى روضة لكنها روضة الردى — وأصغي وما في مسمعي غير وسواس
وأنظر من حولي مشاة وركباً — على مزجيات من دخان وأفراس
كأني في رؤيا يزف الأسى بها — طوائف جن في مواكب أعراس
هناك أبيح الشجو نفساً منيعة — على الضيم مهما يفلل الضيم من باسي
يمر بي الاخوان في خطراتهم — أولئك عوادي وليسوا بجلاسي
أهش إليهم ما اهش تلطفاً — وفي النفس ما فيها من الحزن والياس
ذروني أحس الخمر غير منفر — عن الورد منها نفرة الطائر الحاسي
فربت كأس عن شفاهي رددتها — وقد قتل الدمع السلافة في الكاس
ذروني انكس هامتي غير متق — ملامة رواد وشبهة جواس
في حرة بكر ضلوعي سياجها — أراش عليها سهمه معتد قاس
أعيد إليها كل حين نواظري — واخفض من عطف على جرحها راسي
يكاد يبث المجد مالا أبثه — من السقم العواد، والسأم الراسي
أنا الألم الساجي لبعد مزافري — أنا الأمل الداجي، ولم يخب نبراسي
أنا الأسد الباكي أنا جبل الأسى — أنا الرمس يمشي داميا فوق أرماس
فيا منتهى حبي إلى منتهى المنى — ونعمة فكري فوق شقوة احساسي
دعوتك أستشفي إليك فوافني — على غير علم منك، إنك لي آس

وبعد ، فهل وقعت على وصف للألم كهذا الوصف ، وهل تظن أن الحوادث الانفعالية المنافية ، في النفس الانسانية ، لو أمكن لها أن تتصفى وتترسب ، وتتبلور ، أتكون شيئاً غير هذه القصيدة ؟.. وهل تظن أن فتى العصر الفريد دوموسه ، شاعر العاطفة بلا منازع ، أصاب كبعض هذا الشعر في لياليه المعروفة ؟ .. أنا لاأعتقد ذلك ...

إن عاطفة الألم الدوي ، بلغت من العنف والعمق والاتساع شأواً ، يستحيل على أي شاعر دركه ، كما يستحيل على أي شاعر آخر ، أن يفصح عن هذه العاطفة الدافقة بمثل هـذه المنطق المنسجم ، والخيـال الوسيع ، والموسيقى التصويرية الهادئـــة . ذاك أن أي شاعر ، في حال الانفعـال الشديد ، يكون بوضع يصعب معه النظم ، إن لم يستحل ؛ لأن الحالة النفسية المنافية تكون من القوة والتوتر بحيث تسيطر على ما عداها في عالم النفس ؛ حتى إذا ما هدأ الشاعر وأريد على صياغـة انفعاله كلاما ، نتيجة نزوع نفسي خاص ، وحنين إلى الشعر خالص ، عاد لذاكرته يستنجدها لتبعث له الحوادث من جديد ؛ وقـلّ من الشعراء من يستطيع استعادة الحالة الانفعالية الحادثة ذاتها من جـديد ، لأن الذاكرة لاتستطيع جمع شمل الحوادث كلها ، على صعيد واحد . كما ندر بين الشعراء من يقدر على النظم في صميم الحالة نفسها ، لأن الاعصاب المتوترة المهتاجة ، لاتنقل سوى عواطف بدائية قاصرة ، ونزوات نفسية عنيفة ، لاأثر فيها للفكر الموجه ، وبالتالي ، خالية من الفن العميق — كدت أقول ، أن الفكر هو القابلة الطبيعية ، التي على يدها ، تتم ولادة الفن ...

أما مطران فذو قدرة عجيبة على إحضار الحادثة الواقعة بدقائقها ،

وتفاصيلها ، وذو قدرة أعجب على النظم ، في صميم الحالة الانفعالية نفسها، ولعل الدكتور اسماعيل أحمد أدهم هو أول من كشف هذه الناحية، وعبر عنها ببراعة وايجاز ، إذ قال :

« وأول شيء يطالعك في شعره ، مطاوعة الانفعال الشديد ، للاستجابة الهادئة التي تجعل للذهن مجالاً للتدخل لتصفية ، ألوان الاحساس، وضبط المشاعر والعمل على تناسب الخطوط بين الصورة من حيث كمالها وسكينتها ، وبين الأسلوب من حيث الوضوح والجزالة » .

ونعرض هنا لبعض ما جاء في قصيدته المساء التى نظمها في حال مرض ، كاد يكون عضالاً ، وخيل إليه أنه المرض نفسه ، الذي ذهبت فيه ، من كان يهوى ، وقد نظمها في مكس الاسكندرية ، وسترى في القصيدة كيف يطاوع الانفعال الشديد للاستجابة الهادئة :

داء المّ حسبت فيه شفائي ... من صبوتي فتضاعفت برحائي
ياللضعيفين استبدا بي وما ... في الظلم مثل تحكم الضعفاء
قلب اذابته الصبابة والجوى ... وغلالة رثت من الأدواء
والروح بينهما نسيم تنهد ... في حالي التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يغشى نورَه ... كدري ويضعفه نضوب دمائي
هذا الذي أبقيته يامنيتي ... من اضلعي وحشاشتي وذكائي

مقتطف يونيو سنة ١٩٣٩ ص : ٩٢ : خليل مطران ، شاعر العربية الابداعي . بقلم الدكتور اسماعيل أحمد أدهم .

عمرين فيك أضعت لو أنصفتني لم يجـدرا بتأسفي وبكائي
عمر الفتى الفاني وعمر مخلد ببيانه لولاك في الأحياء
فغدوت لم أنعم كذي جهل ولم أغنم كذي عقل ضمان بقاء
إني أقمت على التعلة بالمنى في غربة قالوا تكون شفائي
أن يشفِ هذا الجسم طيب هوائها ايلطف النيرانَ طيبُ هواء...
متفرد بصبابتي متفرد بكآبتي متفرد بعنائي
شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحـه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصم وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي ويفتها كالسقم في اعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمداً كصدري ساعة الامساء
تغشى البرية كدرة وكأنهـا صعدت إلى عيني من أحشائي
والافق معتكر قريح جفنه يغضي على الغمرات والاقـذاء

والعقل عند مطران ، لايتدخـل في التعبـير عن عواطف مركبة راقيـة ، أو في تصفية ألوان الاحساس ، وحسب ؛ ولكن يبدو أيضاً في صب معقولات كاملة ، فاسمع إليه كيف يتحدث عن التاريخ :

يقص حديث الكون منذ ابتدائه وما اخلفت أحداثه والتجارب
وتمثيل اجيال الورى فيه بادياً خفي طواياه ، لدى من يراقب
هنالك أقوام تجيء وتنقضي وتتبعها أطوارهـا والمذاهب
ممالك تبنى بالصوارم والقنا وتهدمها أوزارهـا والمعايب
غرائب أديان وجنس ومشرب وخلق واخلاق تليها غرائب

تمر ونور النقد يبدي خفيها سراعاً كما مرت ببدر سحائب
ولم أر شيئاً كالفضيلة ثابتاً نبت عنه آفات البلى والمعاطب

الطبيعة : كائنات مفكرة

ومن المسائل المهمة التي تعرض عند البحث في تجديد الخليل نظرته إلى الطبيعة وكائناتها ومختلف أحداثها الظاهرة والمستترة ، على أنها ذات، لها روح تشعر ، وعقل يفكر ، وقلب يحب ، ويعطف ، ويصف ، ويرى. وليس هذا غريباً عن شعرنا ، فابن الرومي كانت له هذه النظرة إلى الطبيعة ، ولكنها كانت على شيء من الضيق لدى الشاعر القديم ، بينما هي شاملة وسيعة لدى شاعر العصر ، ومردها عند ابن الرومي قوة الخيال وحسب ، بينما مناطها عند شاعر العصر قوة الخيال وتوثبه إلى نظرته الفلسفية للكون المتركزة على أن الحب هو الذي يوحد بين مختلف المظاهر الطبيعية كلها ، في نطاق وحدة الوجود :

أليس الهوى روح هذا الوجود كما شاءت الحكمة الفاطره
فيجتمع الجوهر المستدق بآخر بينهما أصره
ويحتضن الترب حب البذار فيرجعه جنة زاهره
وهذي النجوم أليست كدرٍ طواف على أبحر زاخره
يقيدها الحب بعضاً لبعض وكل إلى صنوها صائره

والذي ساعد مطران على تمثل مظاهر الطبيعة ، وكائناتها ، قوة

فكره ، ورحابة خياله وقدرته على التخصيص . فهو لايعمم أبداً ، وقصائده مهما كان غرضه فيها ، ومهما كان الباعث عليهـا ، فهي أثواب مفصلة على قد مواضيعها ؛ وليست أثواباً جاهزة لكل الناس !.

فاسمع اليـه في قصيدة « وردة ماتت » فبكاها الروض حزناً ، وذبل عليهـا الريحان كمداً وأسفاً ، وطوفت بعيون النرجس أشتات اللوعة والأسى ، ولقيتهـا الارض بأجفانهـا تكريماً لها ، وانظر الى الفراشات الحائرة ، الى شبهـات الطير ، وهي تجوب حول القـبر المغطى بالأوراد والازهار ، وقد أخذ الشاعر يسائلها :

... ماالذي تبغين من جوبك يا ... شبهات الطير ؟ قالت وأبانت
نحن أمالَ الصبا ـ كانت لنا ... ههنا محبوبة عاشت وعانت
كانت الوردة في جنتنا ... ملكت بالحق والجنة دانت
مالبثنـا أن رأيناهـا وقد ... هبطت عن ذلك العرش وبانت
فـترانا نتحرى أبداً ... إثرها أو نتلاقى حيث كانت ...

لقد خلع الشاعر على مظاهر الطبيعة ، من مشاعره وأحاسيسه ، كل على قدر ما تشعر وتحس ، وأشركها في جنازة الوردة التي أضاعهـا . وعن هذا ، لايفوتك لحاظ التعاطف المتصل بين الشاعر والطبيعة ، الذي يرى في كل مظاهرها كائنات حية عاقلة يناجيهـا وتناجيه . وحـديث الفراشات ؟. لاشك أنك وقفت عند هذا الجهل بموتها ، الذي طرحه الشاعر ، على الفراشات ، والتجهيل هذا ، هو كل شيء في كمال الصورة الفنية .

وبعد ، أتظن أن الفراشات لو نطقت ، أكانت تحكي غير هذا الحديث أمتع من هذا الحديث ؟!..

إن التخصيص ، يعني هنا ، تفصيل الثوب على القـد ، هبة منحتهـا الطبيعة لبعض المتفوقين من شعراء الدنيا . أما التعميم ، أوالثوب الفضفاض الذي يخلعه الشاعر على كل الكائنات ، فهو قدر معلوم من شعر — لا أقول من نظم — يواتي كل من يلح على صناعة النظم ...

قد تقول ، ولكن الشعر القديم ينطوي على الكثير من إحياء الجامد الهامد ، وإشاعة الحياة والحركة والعقل جميعاً في الكائنات جميعاً ...

أجل قد يكون هذا صحيحاً ، ولكن أمثال هذه التعابير : عيون الزهر ، وأعطاف الغصون ، ونواح السواقي ، وابتسامات الروض ، وغيرها وغيرها ، والتي تلمحها وألمحها في شعرنا القديم والحديث ، ليست من باب إحياء الجامد الهامد ، وانما هي نتيجة للمجاز الذي تقوداليه اللغةلاأكثر؛ اعتقد أنك معي من هذه الناحية ..فان سألت : أي مجاز في قول المتنبي مخاطباً حصانه في شعب « بوان » :

يقول بشعب « بوان » حصاني أعن هذا يصار الى الطعان؟.
أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت إذا رأيت أبا شجاع سلوت عن المكان وذا الزمان

كان جوابي ، أن المتنبي جرد الحصان من الطبيعة الصامتة تجريداً كامـلاً ، ثم أدار معه الحديث الذي رويت لي؛ بينما الطبيعـة ، بعقل مطران ، كل الطبيعة ، فقلب نابض ، وعقل مفكر ، وحياة متدفقة ، وحديث الفراشات للشاعر ، أو ضم الغصون للحسناء :

فاذا دنت في سيرها من زهرة هممت بأخذ ذيولهـا ولثمها

أو جاورت فرعاً رطيباً ليناً أهوى بمعطفه ومال لضمها

أو إصغاء الروض لحديث الغادة :

والروض ساكنة الى نسماتها تصغي لطيب حديثها ولنمها

وتلحظ هذا التعاطف بين الطبيعة والشاعر ، الذي كادت تنحل معه الطبيعة كلها في نفس الشاعر ، أو كاد يستحيل الشاعر والطبيعة ، الى وحدة ذات قطبين ، كل منحدث في أحدهما ، يتغلغل إلى سائر انحاء الوحدة ، في قصيدته المساء :

ياللغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للرائي

أو ليس نزعاً للنهار وصرعة للشمس بين جنازة الأضواء

أو ليس طمساً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء

أو ليس محواً للوجود الى مدى وإبادة لمعالم الأشياء

حتى يكون النور تجديداً لها ويكون شبه البعث عود ذكاء

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء

وخواطري تبدو تجاه نواظري كلمى كدامية السحاب إزائي

والدمع من جفني يسيل مشعشعاً بسنا الشعاع الغارب المترائي

والشمس في شفق يسيل نضاره فوق العقيق على درى سوداء

مرت خلال غمامتين تحدراً وتقطرت كالدمعة الحمراء

فكأن آخر دمعة للكون قد مزجت بآخر أدمعي لرثائي

وكأنني آنست يومي زائلاً فرأيت في المرآة كيف مسائي

والظاهر في القصيدة ، أن الانسجام بين الشاعر والطبيعة . ثم

يقف عند حده الشائع بين فئة من كبار الشعراء ، وهو مخاطبة ظواهرها العامة ، ككائنات عاقلة حساسة ؛ ولكنه استحال الى اندماج صميمي ، واتحاد كامل ؛ حتى ليحار احدنا في أمر هذا الشاعر ، وأمر هذا المساء ؛ فلا يدري على التأكيد أيهما كان يفعل في نفس صاحبه ، وينقل عدوى الالم اليه . أهذا المساء المهيب ، هو الذي بعث الالم في نفس الشاعر ؟ أم أن الشاعر ، هو الذي البس المساء من حزنه حلة الدمع والدم ؟ ! .

ولولا ان تعرف حقيقة الجو الذي نظمت فيه الرائعة الفنية ، وتعرف انها ولدت في مرض ، ظن الشاعر انه المرض نفسه الذي ماتت فيه من كان يحب لالتبس عليك الامر أيما التباس ! .

ولا يندمج مطران في الطبيعة وحسب ، ليؤلف معها وحدة تامة ، بل يمازج ويصل بين مختلف ظواهرها وحركاتها ؛ فدوران حباب البن في فنجانها كدوران النجوم في أفلاكها ، كدوران الاليف على أليفه :

ارأيت صوغ الدر في العقيان ... هذا حباب البن في الفنجان
فلكٌ تمثل شمسه ونجومه ... أفلاكنا في السير والدوران
ليلى أجيلي الطرف فيه تنظري ... سر الكيان وآية الأزمان
تجدي سماوات وسعن عوالماً ... فتانة الابداع والاتقان
منثورة أفرادها منظومة ... جمعاً بما لا تدرك العينان
سيارة خلل الجهات حوائراً ... مرتادة في البحث كل مكان
فيذوب كل منهما في صنوه ... وكذاك يحيا بالهوى الصنوان
جسمان يغتديان جسماً واحد ... كتوحد الحبين يقترنان
روحان يمتزجان حتى يصبحا ... شبه الصبا والطيب يمتزجان

وقد تكون النرجسة امرأة ، أو المرأة نرجسة ، لافارق ، وهو لايحس ذلك من وجهة نظر التشبيه ، وإنما يراه واقع حال :

داع دعاه الى الجهاد فأزمعا ... سفراً وجاد بنفسه متطوعا
غلبت حميتـه هواه لعرسه ... فنأى ، وودع قلبه إذ ودعا
وقضت أمينة بعدء أيامهـا ... في الحزن غير أمينة أن تفجعا
غرست بصحن الدار زهرة نرجس ... لتكون سلوتها إلى أن يرجعا
كانت تبالغ في رعايتها كما ... ترعى عيون الأم طفلاً مرضعا
حتى إذا ما جاءها عن بعلها ... نبأ أصم المسمعين وروعا
شقت مرارتها عليه وأوشكت ... من هول ذاك الخطب أن تتصدعا
وكأن ذاك الرزء قبل وقوعه ... مما شجاها لم يكن متوقعا
فتفقدت يوماً اليفتها التي ... كانت سلتها حسرة وتوجعا
فاذا بها ذبلت كزهرة حبها ... كلتاهمـا نمتا وعوجلتـا معا
ذبلت وحلاها الندى فكأنها ... عين أسال الحزن منها مدمعا

إن اندغام الكائنات كافة ، احيائها وجمادها ، في وحدة الوجود الشاملة في ذهن الشاعر ، وتحسسه العميق بهذه الوحدة ، يتسق وأعمق التأملات الفلسفية في الحياة والفن ؛ ثم إن الافاضة بها عن صفحة وجـدان الشاعر ، لفتح جديد في أدب العرب ! . .

• • •

لا أقصد بالتسمية أنني سأدرس روايات تمثيلية ، لشاعر العصر ، فأنا لم أعثر له على شيء من هذا القبيل . ولعل الأسباب المانعة تتجمع حول عاملين أساسيين :

الأول ، موضوعي يتعلق بأشياء خارجة عن إرادة الخليل ، وعن نطاق شخصيته ، منها انخفاض المستوى الفكري والفني لدى الجمهور ، في بيئة الشاعر ، في مصر ، وفي سائر بلاد العرب ، وعدم إمكان تذوق هذه البيئة للشعر التمثيلي الراقي . إلى عدم قابلية المسرح المصري لهذا النوع من الشعر .

والثاني ، ذاتي يتصل بطريقة الخليل التوجيهية . وأسلوبه الفني وفكره الناقد ، إذ لا يريد أن يبدع أشياء لا يتقبلها الناس ، ولا يهضمها الشعب ؛ وتأبى عليه رسالته من جهة مقابلة ، أن يسكت عن هذا الضرب من الشعر الضروري في بناء الحضارة الفنية ، لدى الشعوب الطامحة للحياة . فماذا صنع مطران ؟ .

الحق أنه لم يوجد في كل العربية شاعر أدى رسالته الدرامية ، كما أدّاها مطران ، إذ وضع الأسس الصحيحة الراسخة ، للشعر التمثيلي في أدبنا العربي ، وبدأ بترويض الذوق الفني لدى الجمهور ، على تقبل وتذوق هذا اللون . وتم له وضع تلك الاسس ، وذاك الترويض بطريقتين :

أولاهما ، التوفر على ترجمة روائع الشعر التمثيلي الأوربي ، ونقلها الى العربية ، محافظاً على الروح للمبدع الأصلي ، سواء أكان اتجاهه ابداعياً أو اتباعياً ، بلغة ناصعة البيان . وأسلوب ظاهر الترف الفني !

وثانيتهما . ترك معين لا ينضب ، من القصائد التي تحمل روح الدراما ، وتنطوي على مجموعة من الشخوص التي ابدعها الخليل ، وأجرى على لسانها الحوار ، والقى على سلوكها من التصرفات ، ما يصلح معه أن تكون مثالا يحتذى ، في بناء الفن الدارمي عندنا معشر العرب .

وهذه القصائد الكثيرة هي وحدها التي يهمني أمرها ، وهي نفسها التي أوحت لي ذاك العنوان الذي صدرت به هذا البحث من تجديد مطران .

وقبل مباشرة الموضوع ، لابد من إيضاح أمرمهم أخر ، هونفي صبغة التشاؤم عن شخصية شاعر العصر ، لأن كثيراً من الباحثين استدلوا على تشاؤم الشاعر من الروح الحزينة التي تطبع بعض شعره ومن المآسي الكثيرة التي صبها في قصائد قائمة بذاتها ، ومن حملاته الكثيرة على الظالمين والمظلومين جميعا ! .

التشاؤم كما عرفته في أثار أصحابه اعتبار الشر ، العنصر الأساسي في الوجود ، أو أن الوجود ، بذاته ، شرمحض ؛ وأن الانسان مفطور على الرذيلة والأنانية ؛ ثم الشك بنفع العقل الانساني ، وانه من علل شقاء الانسان : وفقدان الثقة بقدرة المجتمع على انتطور وغير ذلك من الافكار المخربة ، العائقة سير الانسان نحو الكمال ، في الخير والجمال والحق .

أما مطران ، فكان على نقيض هذه الحدود كلها ، وماحزه الشخصي العميق ، سوى مظهر من مظاهر وفائه النادر لذكرى فتاة كان يحبها اختطفها الموت في ريعان الصبا . أما تصويره الفساد في المجتمع وابراز التناقضات فيه ، فما ذلك سوى تعبير صارخ عن نزعة مطران إلى الخير ورغبة ملحة في الثورة والتجديد ، وطمحات صادقات إلى الاصلاح . ومن

كان هذا شأنه ، فهو أقرب إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، بل لماذا لاترك هذه الألفاظ جانباً ، وأفرغ من القول ، أن شاعر العصر كان واقعي النزعة ، مثالي الغاية ، لا ينقد الاليصلح ، ولايهدم إلاليشيد .

بعد هذا ، أعود إلى الموضوع ، دون ما زيادة في تداعي المقدمات .

عندما ترتمي صور الحياة على صفحة مطران تمازج وتتفاعل وتترك اثرها العنيف في تضاعيف النفس الحساسة ، فتنعكس عن صحفة نفس الشاعر ، صوراً جديدة ، تمت الى الواقع بصلة الحقيقة ، وترقى عنه بصفات الوضوح ، وسهولة العرض ، وحذف الزائد من الخطوط والألوان والظلال .

وشخوص تلك الصور ، تتصف بالوجود المتميز ، من حيث انفعالاتها ومفهوماتها ، وسلوكها في التصرف والحوار . وكذا فشخوص الدراما ، لدى شاعر العصر ، هي شخوص الواقع الحي ، لكنها أشف وأصفى ، وأكثر حرارة ، وأشد ضياء ، لأنها تكتسب من شخصية الشاعر ما يجعلها تتميز بما ذكرت لها من الصفات .

وفلسفة مطران ، او نهجه أو آراؤه عموما ، لا تظهر ، بعرضها وتركيزها في التعابير التي تدل عليها ، لأن ذلك يصبغها بشيء من الجفاف ، وصعوبة الفهم . وإنما تظهر آراؤه وتوجيهاته من خلال الحوار والحركة والسلوك ، التي يلقيها على أشخاص الدارما الفنية المُبدَعة .

هو لا يقص لك أن فلاناً يحب شديد الحب ، والآخر يبغض شديد البغض ، والثالث لا يبالي . . . وإنما يصور لك سلوك الأول والثاني والأخير ، ويجعلك تحكم على كلٍ بما ينطبق عليه . . هذا وجه من وجوه الدراما الفنية لديه ، وثمة وجه آخر ، فهو إذ يرسم لك الحالة

العارضة ، اجتماعية كانت ، ام نفسية ، أم سياسية ، لا يطلع عليك بالحل الموافق لها ، بشكل علمي جاف ، وإنما يبين لك الاتجاه والهدف ، ويدفعك في السبيل التي يريدها لك ، والتي يرضى عنها ذوق وشعور، الانسان الراقي . ولعل من صفات المبدع المتفوق الا يطلع على النـــاس بالاوامر والنواهي ، وإنما يترك لهم حرية الاختيار ، شريطة أن يكون قد أحسن العرض ، وأوضح الهدف ! .

بين يدي قصيدته الفتاة الفلاخية ، التي نزلت مصر ، وتعرفت على فتى جميل المحيا ، نذل الخلق ذليل الهوى ، فغرر بها ، فحملت منـه ، وخافت الفضيحة ؛ ولم تجـد للخلاص سبيلا ، سوى قتل جنينها في أحشائها – هي قصيدة « الجنين الشهيد » .

والقصيدة من نوع المخمس ، تزيد على اربع مئة بيت من الشعر الخالص ، وشخصاها المهان ، ليلى وجميل هما من ابتكار الخليل ، ولعل للقصة أصل أوروبي ، كما حقق بذلك الاستاذ النجار صاحب جريدة اللواء اللبنانية ، أما هذا فليس عظيم الاهمية – فالتجديد ، ليس الخلق من العدم ، ولكنه تأليف بين العناصر القديمة . وانظر إلى الفتاة ، وهي تتحرك ، لا وفقاً لما يريده الشاعر ، وانما وفقاً لسياق الحوادث الواقعة كل يوم ، فهذا الخليل يعبر شخصيته للفتاة في ساعة الاجهاض :

فياولدي المسكين فلذة مهجتي ويا نعمة عوقبت فيهـــا بنقمة
ومن كنت ارجوه لسعدي وبهجتي وكان يناجيه ضميري بنيتي
وآمل أن يحيا ويرجع لي بعلي

تموت ولما تستهل مبشرا تموت ولم انظر محياك مسفرا
وتبرح قبراً فيه عذبت أشهرا إلى جدث منه أبرّ وأطهرا
وتحيا صغار الطير دونك والنحل

تموت وما سلمت حتى تودعا (١) وأمك تسقيك السموم لتصرعا
وتنفيك من جوف به كنت مودعا لتكفيك عمرا لايطاق بماوعى
من الحزن والآلام والفقر والذل

فان تلق وجه الله في عالم السنا فقل ربي اغفر ذنب أمي محسنا
فما اقترفت شيئاً ولكن ابي جنى علينا ، فعاقبه بتعذيبه لنا
وأمطره نيرانا تذيب ولاتبلي

كفرت بحبي في ذهول تغضبي فعفوك يابني ماابوك بمذنب
فقل ربي أمي اهلكتني لأبي وأمي زنت حتى جنت ماجنته بي
فزدها شقاء واجزها القتل بالقتل

أضاعت به مما تقاسيه رشدها وعانت من الآلام فيه أشدها
يغالب آناً وجدُها فيه حقدها ويغلب آناً حقدُها فيه وجدها
وتصرخ من فرط التألم والأزل

أرأيت إلى الحياة كيف تهدر في الصورة ؟ ! ارأيت إلى الخليل وهو يعبر عن أدق مايعتلج بصدر الفتاة من العواطف المتناقضة ، والآمال المسفوحة ، والآلام الجائشة ؟ . هـــذا شعربريءٌ من البرودة والسطحية . .

وإذا تساءلت كيف ختم الخليل دراماه الفنية ، وأي أسلوب صاغ في توجيه المتذوق فاسمع :

---

(١) هذا الشطر ينظر الى قول المتنبي : ... كان تسليمه علي وداعا

رأت شهب الظلماء مشهد ظلمها لدن اسقطت منها الجنين بسمها
فلم تتساقط مغضبات لحطمها واشرب نور الشمس من دم إثمها
كما يلغ الضاري الدماء ويستحلي
على أن ليلى بعد عام تصرما سلت في الملاهي أمرها المتقدما
وعاش جميل ناعمَ البال مكرَما كأنها لم يستبيحا محرَما
وما عوقبت غير الطهارة والطفل

ترى أنه لم يفرض رأيه فرضاً ، وإنما جعلنا ـ أنت وأنا ـ نهز رأسينا ايجاباً وإعجابا ، مؤمنين بجلال الفكر ، وجمال الفن ، ونبل الغرض ! .

وقصيدته « فنجان قهوة » تلك الواقعة التي جرت حوادثها في قصر ملك مستبد ، تنطوي على اشخاص كثر ، فالملك ثعلب متدثر بالأرجوان ، وابنته الحسناء ، محبوسة في القصر : القفص الحديدي ، وقد هامت بحارس أبيها ، فهي موزعة الخواطر مشغولة الأفكار ، تحس لشـــدة غرامها ان مرضاً استحكم فيها . فاذا نظرتها في الواقع لالتبس كثير من أمرها عليك . ولكن لو نظرت اليها وقد سلط مطران اشعته عليها ، لبدت لك ، شديدة الوضوح واللمعان ، شديدة الصلة بالواقع :

لمحَتْه يوماً خلسة في موكب بجوار والدها الأمير الأهيب
تمحو اشعة حسنه الوهـاج بجمالهن جلالَ رب التـاج
فأصابها سهـم الغرام والمّـا حتى لكان يهون لو أجرى دما
وقضت ليالي بعد ذلك ساهده حيرى مولهة ملولاً واجده
لا تستريح ولا تقر من الجوى وتخال داء ما بها وهو الهوى ..

ومنها يقول :

وتواعد المتعاشقان على اللقا ... في مأمن من طارق أن يطرقا
حتى اذا دفق الدجى بسيوله ... مضت الأميرة في خلال سدوله
تختال في أثوابها السوداء ... عن قطعة تمشي من الظلماء
طوراً تضل وتارة تتعثر ... وفؤادها متفزع متطير
وتكاد إن لمحت إشارة نور ... تنحل مثل غياهب الديجور
لكن ذاك الخوف لم يتجرد ... من لذة الشيء الذي لم يعتد
ورجاء نور مقبل وآمان ... وسعادة يأتينها في آن .

لاشك عندي أن الرجل أحد الأعلام الافذاذ في تشريح العواطف الانسانية . . .

كان يجب أن أنقل لك صورة السهم الذي شق أحشاءها ، في تلك الليلة ، وهي في طريقها للقاء حبيبها ، بالمكيدة اللئيمة التي كان نصبها لها أبوها ، وصورة فنجان القهوة المبطن بالسم ، وقد أمر الملك الغشوم فارسها الجميل بتجرعه ؛ فتخرج بفكرة كاملة عن القوة الدرامية العنيفة التي تعصف في اطواء شاعرية مطران ؛ ولكنني آثرت الايجاز لاخوفاً من الملل ، ولكن لضيق الوقت ولاني لاستطيع أن انقل إلى هذه الصفحات كل شعر شاعر العصر ! . غير أني اقص عليك الحكمة : إن الاستبداد ، والحكم الفردي ، لايلهب بسياطه وجه الفكر وحسب ، ولكنه يكوي بناره شغاف القلب أيضاً ...

وقصة الشاب الذي انتحر حزناً على فقد فتاة كان أحبها . ستقول إن

الواقع لاينطوي على شيء من هذا .. لاتتعجل في الحكم ، ولا تظنن أن الشاعر طفر بك مرة واحدة إلى هذه النتيجة ، فقررها ببساطة ؛ لا ، إنه رسم شخصية الفتى ، وأخلاقه ، وصفاته المميزة : شاب مثالي ، ضعيف الرأي رقيق الشعور ، مرهف الاحساس ، كثير البذل ، واسع الثراء ، صبيح الوجه ، عاطفي ، خيالي :

رآها فتى خال فملّك حسنها ... قياد الهوى في قلبه المتوزع
وكان ضعيف الرأي في أمر نفسه ... رقيق حواشي الطبع سهل التطبع
أديباً صبيح الوجه بين ضلوعه ... فؤاد جواد بالمحامد موزع
غنياً على البذل الكثير موطأ ... له كنف العلياء في كل مفرع

بحيث جعلنا لا نستغرب كيف أصابت سهام اليأس مقتلاً من قلبه، لما نعيت إليه حبيبته ، فقضى في أثرها ، على نفسه ! .

ولأن ثقافة مطران وسيعة ، بعيدة الشمول ، عميقة الغور ، استقام له خيال مبدع ، كثير الصور المركبة . والخيال ، ينقسم إلى نوعين ، كما يشرحه عالِم النفس : تمثيلي ومبدع ، فالتمثيلي وهو الاضعف يتيسر للشاعر عن طريق التشابيه والاستعارات والكنايات ، وضروب المجاز . بينما الخيال الآخر الأسمى ، فلا يستقيم للشاعر إلاّ إذا كان غزير الثقافة ، بعيد الاطلاع . فتأمل في هذه الصورة النادرة المثال ، التي ترسم طفولة الشاعر مع رفيقة خياله :

كنا كغصني دوحة نبتا ... بل زهرتي غصن تعانقتا
بل حبتين بزهرة نمتا ... وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب

ترى أثر الثقافة الواضح ، في تحريض الخيال على هذا الابداع الفني الرفيع .

أما الوحي والالهام ، والموهبة والعبقرية ، والسحر وشيطان الشعر ، وغيرها وغيرها ، فتعابير بدأت تجرر ظلالها رويداً رويداً ، عن طريق النقد في أدبنا الحديث .

أعود إلى القول أن شخصية الخليل المركبة ، الشديدة التعقيد ، وخياله المبدع ، الواسع الثراء ، جعلاه يخلع على شخوصه انماطاً من السلوك ، وضروباً من الصفات ، فاذا هي شخوص متميزة مبتكرة ، لا أثر فيها للتناقض أو للتضاد .

وقصيدة « الطفلان » ذاك المونولوج التمثيلي الذي يدور حول طفلين : طفلة تنام في سرير من الذهب « كدرة نامية في جسد » ولها « ثغر مرتجف كالوتر » المهتز « ايقاعاً على شدو منام » . وطفل ، اتخذ كالأجير ليشغل الطفلة ، فينصرف أهلها الى شؤونهم : تمثل لنا واحدة من حوادث كل يوم ، يستحكم الهوى بين الطفلين ، ثم يفترقا بحكم السن ، ويذهب الفتى مهاجراً في سبيل الذهب ، ليرضي به ، أهلها الطامعين ببريقه ، وتنتظر الفتاة أوبته على جمر ، ويأتيها خاطب ، فضيلته الوحيدة ، كثرة ماله . وزوجها أهلها :

فقضت في وصله شهر العسل — لم تذق فيه سوى مر زصاب
أنسها ذكرى لياليها الأول — وحبيب شفها منه الغياب

•

وتولاها من العيش ملل — لازدياد الشوق فيها والعذاب
ودهتها علل اثر علل — قصفتها وهي في شرخ الشباب

إنما حكم الهوى في الزهر ... حكمُه النافذ ما بين الأنام
حيث جاوزن غلاظ الشجر ... متنَ في الاكمام من سوء المقام

•

ويعود المهاجر ، والجاه يمشي في ركابه ، ويدري بالنبأ الفاجع ، فيهوي كالجماد فاقد الحس :

رق من شكواه صلد الحجر ... مالت الشمس وغابت في سقام
سال كالبلسم نوُر القمر ... لو شفى البسلمُ جرحاً غير دام

•

ويهزه الشوق للشم مثواها الكريم :

هب من صرعة داك الخبر ... قائم الطلعة يمشي في قتام
مبطئاً من ضعفه والخور ... شادياً والشدو للشجو لزام :
« وطني العزيز لقد عهدتك قبلها ... أمناً لنا ومخافة للعادي
إني اغتربت وفي حماك وديعتي ... أين الوديعة ، تلك شطر فؤادي
صفي لمشربها العقيق معينه ... وزكا لمنشقها نسيم الوادي
أنى سمحت بها تباع كسلعة ... وتموت غماً موت الاستشهاد ؟
يا معهد الطفلين كيف عدتها ... دون التلاقي في حماك عواد
ياذي المنازل كيف انسك بعدنا ... من صادحٌ ومغرد في النادي
ياهذه الجنات جنات المنى ... ياهذه الشماء في الاطواد
هل في معاهدك الجميلة بعدنا ... من رائح ، برّ الخطى اوغاد ...
يا من نأت عني وكانت منيتي ... دون الانام جميعهم ومرادي
إني لمتخذ ترابك إثمدي ... حتى اللقاء ، وذكر حبك زادي» .

ويضج ويتلوى عذاباً عند القبر ، حتى همد أو كاد ، فيسمع من بعيد الغيب ، من خلف الزمن :

« ملتقانا في مسيل الكوثر في جنان الخلد في دار السلام

ثم ننجو من شرور البشر وعلى الدنيا ومن فيها السلام ! »

ولولا أن تكون الفتاة التي أحبها مطران لم تتزوج ، لما شككت لحظة بأن القصيدة العنيفة ، إنما كانت تصويراً لواقع الشاعر ، وإلا أي روح درامي خاص ، هو هذا الذي يتغلغل في اطواء القصيدة ، فيكسبها حرارة ونوراً وحياة ، وأي شخصية حساسة يلبسها مطران ، لهذا الفتى المولّه ، الذي ينبض حديثه باللوعة والحزن ، اعني ، يشرق بالدمع إذ يحدث !.

أنا أجل مطران عن تغيير الواقع ، لانني أعرف الرجل ، ولست ادري كيف أفسر هذا القول الذي قدمت به القصيدة : « مونولوج » تمثيلي « نظم بطلب » الشيخ سلامه حجازي ، وكان رحمه الله يغنيه منفرداً .

إن أكثر شخوص مطران في شعره الدرامي ، من ابتكار خياله ، واكثر شعره في هذا النحو ، يهدف التوجيه الخلقي أو الاجتماعي ، على ما هو معروف في آداب الأمم التي ازدهر فيها هذا الشعر ، في حال انه لاينقصه عند مطران ، شيء من صفات الفن الرفيع ...

خلاصة التجديد

الآن أريد القول أن تجديد مطران في الشعر العربي، لم يكن، كحركة الابداع التي قامت في أوروبا على انقاض الكلاسيك لأن تلك الحركة الابداعية، اتصفت بالشعور المرهف، والخيال المترف اكثر مما اتصفت بالتوجيه الاجتماعي، أو الخلقي أو العقلي.

واكثر شعراء الحركة الابداعية الأوروبية يطبعهم على العموم، الشعر الوجـــداني، والشعر الغنائي، بينما شعراء الكلاسيك، فشعرهم درامي، تمثيلي.

أعني أن شعرنا القديم يختلف عن كلاسيك أوروبا، وحركة تجـديدنا التي قام بها مطران، تختلف عن رومانسية أوروبا، أقول ذلك ليطمئن بال بعض المتعنتين — حاشاك الله — فشاعر العصر، شاعر عربي، يعيش في بلد عربي، في صميم حضارة النصف الاول من القرن العشرين، وهو شديد الحرص على سمة العرب، وأدب العرب!.

إن مدرسة تجديده، وان لم تظفر بالكثير من الذيوع والامتداد، حتى الآن، ولكنها ولا شك، ستكون طريقتنا، التي لامعدى عنها في أدبنا القادم!..

ولعلي أعود لهذا الموضوع — في غير هذا الكتاب، ان اسعفني الزمن — في المستقبل القريب ...

شاعر الحرّية

بدوي

حرية وحرية ـ قائد حرية ـ صور من التاريخ
صور من الواقع .

شردوا أخيارها بحراً وبراً واقتلوا أحرارها حراً فحرا
إنما الصالح يبقى صالحاً آخر الدهر ويبقى الشرشرا
كسروا الاقلام هل تكسيرها يمنع الأيدي أن تنقش صخرا
قطعوا الأيديَ هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظرا شزرا
أطفئوا الأعين هل إطفاؤها يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا
أخمدوا الانفاس هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم... فشكرا

خليل مطران

حرية وحرية...

أقصد بالحرية الأولى ، حرية مخائيل نعيمة، وبالثانية حرية خليل مطران...

أقصد بالأولى : تحرير « الروح » من العقل ، والجسم من الغريزة ، والارادة من العاطفة ، واستغناء المعدة عن الطعام ! . واقصد بالحرية الثانية : خلاص الانسان من الاستعمار والاستثمار ، وخلاص العقل من الجهل، وخلاص المعدة من الجوع ، وخلاص الانسان من تحكم ربه الانسان ! .

أعني بالأولى : معاول الهدم ، في صرح الثانية : الحضارة . وأعني بالثانية معاول الهدم في صرح الأولى : العبودية ! .

في القرن السابع عشر ، رجع ديكارت إلى عصور اليونان الأولى، ليقرر فكرة القدم : « إبدأ بنفسك ! » وفي القرن العشرين ، ردد المستعمرون ، ومثاليو المستعمرات ، صدى الصوت ، طالبين إلى الزنوج والعرب — لأنه لم يبق غيرنا تحت النير — ان يعرفوا أنفسهم ! . هكذا قال ديكارت. اما كيف يعرف الانسان نفسه وهو في القيد ، فهذا من عجائبهم ! .

أنا لا أنكر ، ولا استطيع أن أنكر ، عمق تفكير ديكارت بالنسبة للقرن السابع عشر ، وبالنسبة لكل الشعوب صاحبة الحول والطول ، والتاج والصولجان ؛ إذ جميل غاية الجمال ، بالنسبة للأقوياء في الارض ، أن يعرفوا نفوسهم ، تمهيداً للخروج إلى الطبيعة والسيطرة عليها ، أما المستضعفون فيها ، فالأليق بهم أن يعرفوا غيرهم أولاً ، تمهيداً للتعرف على ذواتهم ، والخروج بعد ذلك إلى الطبيعة . هذه هي سبيل الحياة . .

قد أفهم لماذا يبشر المستعمرون بأمثال هذه الأفكار في المستعمرات، ولكن الذي لاأفهمه كيف تجوز الحيلة على المثاليين في المستعمرات .

وأنا لاأزعم انني اريد للانسان العربي أن يكون عبداً لعواطفه وغرائزه ، ولا أقول أن معرفة الانسان نفسه ، لاتحرره من كثير من الاوهام والاضاليل والمخاوف ، ولكن الذي أزعمه وأقوله أن الكاتب الكبير ، والشاعر الكبير ، والفنان الكبير ، في الشعب العربي ، وفي القرن العشرين ، ليس من شأنه السبح وراء هذه الفلسفات وأضرابها ، إذ يكون بذلك ، قد تعدى على مهمة المعلمين التربوية ، في المدارس الابتدائية ...

إن النابغة في الامة ، في الأمة العربية ، يجب عليه أن يعصف بالظلم عصفاً ، وأن يقارع الطغيان مقارعة ، وأن يهز الواقع بقلمه هزاً . عليه أن يزين النضال ، والأخلاق النضالية في عيون أبناء الأمة العربية الكبيرة ، لينهضوا مرة أخرى لتأدية رسالة الخير والحق والجمال . . .

وهكذا كانت حرية خليل مطران ...

قائد حرية

فتح مطران عينيه على النور ، والظلام — اعني الاستعمار — يلف أرض العرب . والشعب يكافح شر ألوان البلاء ، ويقاسي أفظع أشكال الاستبداد : فعبدالحميد ، يخنق الحرية ، ويعطل الدستور ، ويشرد الاحرار ، ويقتلهم . والفرنسيون يغزون تونس والجزائر ، ويثبتون سلطتهم ، ويوطدون أمرهم رغماً عن المقاومة المستميتة . وطراباس الغرب ، تدفع غزو الطليان

بالأكف الخضيبة ، والسيوف القديمة، ولكنها تسقط صريعة الظلم والطغيان بعد بطولات كالأساطير . ومصر تصاول الاستعمار الانكليزي بالفكر مرة ، وبالقوة مرارا . . . أما العرب ساكنو الجزيرة ، فيتحملون بفروغ صبر فظاعة أبناء عثمان ، وجهالتهم المنقطعة النظير ! .

رأى مطران كل ذلك . وأدرك بثاقب نظره ، الامكانيات الضخمة ، التي تكمن في الأمة العظيمة ، كما ادرك العوائق التي تحول دون الأمة لتبوء مكانها من الارض . إن جو العبودية والاستعمار ، وجو الحكم الفردي المطلق ، هو الذي يقف حائلاً في وجه التوثب والانعتاق . وأخذ مطران نفسه ، في تلك الايام الشداد ، بعهد وثيق ، سيكون جندياً من جنود الحرية ؛ ولكنه كان القائد الأوّن . .

وقد يحدث في تلك الأيام السود ، أن يأخذ المستعمرون ، حكامَ العرب بضرورة كمّ الافواه ، وقد يطيع هؤلاء مضطرين ، فيصرخ مطران :

شرودا أخيارها بحراً وبراً ... واقتلوا أحرارها حراً فحرا
إنمـــا الصالح يبقي صالحاً ... آخر الدهر ويبقى الشر شرا...
كسروا الأقلام هل تكسيرها ... يمنع الأيدي أن تنقش صخرا
قطعوا الأيدي هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شزرا
اطفئوا الاعين هل اطفاؤهـا ... يمنع الأنفاس أن تصعدا زفرا
أخمدوا الانفاس هـذا جهدكم ... وبه منجاتنا منكم ... فشكرا (١)

(١) أحفظها : فصبرا .. ولكنني آثرت نقلها ، كما جاءت في الديوان . والفرق واضح بين اللفظين .

وينتشر خبر القصيدة ، فيستدعيه أحد رؤساء الوزارات ، ويقسو في القول ، ويهدده بالنفي . فيخرج الخليل مغضباً ، ويظهر في الصحيفة الصباحية لذلك اليوم :

أنا لا أخاف ولا أرجي ... فرسي مؤهبة وسرجي
فاذا نبا بيَ بطن بر ... فالمطية بطن لج
لا أقول غير الحق لي قول ... وهـذا النهج نهجي
الوعد والايعاد ما كانا ... لدي طريق فُلج(١)

في تلك الأيام نفسها كانت الصحف تزين صدورها ، بقصائد أمير الشعراء :

حف كأسها الحبب ... فهي فضة ذهب . .
شاعر الامير وما ... بالقليل ذا اللقب !.

وأنا لا أنسى شعر شوقي في الوطنيات ، ولكنه جاء متأخراً أكثر من اللازم !.

صور من التاريخ

لقد كانت الدعوة للحرية ، في ذلك الزمن ، في ظلال الحكم الفردي شأنها في كل الأزمان ، تكلف الأحرار غاليا ، دماءهم مثلاً . فاذا صرع عبدالحميد ، مدحت باشا ، أوغيره من أحرار الترك ، أو أحـرار العرب ، استحال على الشاعر الحر ، تسجيل الواقعة الحادثة واستنكاره لها ، كما يستحيل عليه السكوت عن الفضيحة التاريخية المظلمة . عند ذلك يعود مطران إلى أحداث التاريخ ، أي تاريخ كان ، ويقص قصة قديمة يضمنها كل ما يريد حديثاً . هـذا بزرجمهر مثلاً ، وزير فارس ، يقتله كسرى

(١) فُلج : ظفر

العادل ، وتخرس الالسنة عن استنكار الجريمة . ولايجهل الشاعر ، عما في هذا الاختيار ، من مخالفة للشائع بين الناس. فيمهد لقصيدته بقوله : « اشتهر كسرى بالعدل ، وكان بلا منازع أعدل ما يكون الملك المطلق اليد في أحكام بلاده . فان كان ما وصفناه في هذه القصيدة ، إحدى جنايات مثله في العادلين ، فما حال الملوك الظالمين ؟ » :

... كسرى ! اتبقي كل فدم غاشم ... حياً وتردي العادل المفضالا
وتدق في مرأى الرعية عنقه ... ليموت موت المجرمين مذالا
أين التفرد من مشورة صادق ... والحكم اعدل مايكون جدالا
إن تستطع فاشرب من الدم خمرة ... واجعل جماجم عابديك نعالا
واذبح ودمر واستبح أعراضهم ... وامـلأ بـلادهم أسى ونكالا
فلأنت كسرى ما ترى تحريمه ... كان الحرام وما تحل حـلالا
وليذكرن الدهر عدلك باهراً ... ولتحمدن خـلائقاً وفعـالا
لو كان في تلك النعاج مقاوم ... لك لم تجيء ما جئته استفحالا
لكن ارادت ما تريد مطيعةً ... وتناولت منك الاذى افضالا

•

ناداهم الجـلاد هل من شـافع ... لبرزْ جمهرَ فقال كل لا لا !
وأدار كسرى في الجماعة طرفه ... فرأى فتاة كالصباح جمالا ..
بادٍ محياهـا فأين قنـاعهـا ... وعلام شاءت أن يزول فزالا ..
فأشار كسرى أن يرى في أمرها ... فمضى الرسول إلى الفتاة وقالا :
مولاي يعجب كيف لم تتقني ... قالت له : أتعجباً وسوالا ؟

انظر وقد قتل الحكيم فهل ترى إلا رسوماً حوله وظلالا
ماكانت الحسناء ترفع سترها لو أن في هذي الجموع رجالا !.

صورتان تلفتان النظر : النقمة على الشعب الزاحف ، مصفقاً للظلم ، وتمجيد المرأة الصارخة في ساحة النضال ، ضد الاستبداد - هذا هو ظاهر الحال أما الحقيقة فغيرة لاهبة على الحرية ، ودعوة الشعب المخلصة للنهوض إلى حقه السليب . ناهيك عما في القصيدة ، من المعاني النادرة ، والأخيلة البديعة . فانظر إلى الدرة التي يزين بها كسرى سيفه :

وكأن درة سيفه عينٌ ترى كم تحت قائم سيفه آجالا

تقع ولا شك ، على شاعرية عميقة الأغوار . . .

وبعد فهل تعتقد أن الشاعر مشغول بحوادث التاريخ الفارسي ، بهذا القدر الذي يبدو ، أم أنه يريد أن يحكي شيئاً عن عصره ، يعتلج في صدره ، فاستعار له هذه الصورة القديمة ؟ . قليل من التأمل والتجرد يوصلك إلى الحقيقة ، الحقيقة كلها .

وهذا التاريخ الروماني ، يتناول منه مطران نيرونه الكبير ، ليجلده بسياطه ، ويمسخه قزمة ، بيد أن نقمته على الشعب كانت أشد وأدهى :

ذلك الشعب الذي آتاه نصرا هو بالسبة من نيرون أحرى
أي شيء كان نيرون الذي عبدوه ؟ كان فظ الطبع غرا
بارز الصدغين رهلا بادنا ليس بالأتلع (١) يمشي مسبطرا
خائب الهمة خوار الحشى إن يواقف لحظه باللحظ فرا
قزمة هم نصبوه عاليا وجثوا بين يديه فاشمخرا

---

(١) الاتلع : ذو العنق الطويل

ضخموه وأطالوا فيئه فترامى يملأ الآفاق فجرا
منحوه من قواهم ما به صار طاغوتاً عليهم أوأضرا ..
مدّ في الآفاق ظلاً جائلاً هوظل الموت أوأعدى وأضرى!..

وقبل أن أتوغل معك في القصيدة ، لابد من ايضاح أمر هام ، في الموضوع : يعتقد بعضهم ، أن خليل مطران لم يكن شاعر الشعب ، لأن من كانت هذه صفته ، لايسب الشعب ؛ ولا ينقم عليه . وان خليل مطران ، لم يفهم — مسكين مطران — حقيقة الواقع في روما ، ولم يفهم حقيقة الصراع الطبقي على وجه عام ، وأنه غاب عنه أن الظالم انما يستمد قوته من فئة خاصة في المجتمع ، لامن سائر الطبقات . وأن نيرون ، استمد قوته من فئة خاصة في المجتمع الروماني : الاعيان ، ورجال الاقطاع ، وبالتالي ، فنقمة مطران كان يجب أن تنصب على هؤلاء .

هذه اوهام في رؤوس بعضهم يجب أن تتبدد ...

إن النقمة على الشعب دوماً ، كتمجيده دوماً ، خطأ فاحش ، فالشعب الذي يألف الاضطهاد ، ويشعر بالخوف والغربة والفراغ ، عندما يرفع عنه النير ، هو شعب يستأهل شيئاً من النقمة . واما الشعب الذي ينفر من الظلم ، ويحطم القيود والسدود العائقة سيره نحو الكمال ، ويهب للحياة الحرة الشريفة ، فهو شعب جدير بالتمجيد ، جدير بالحياة — هذا أولاً .

وشاعر العصر فهم حقيقة الصراع الطبقي ، على وجه عام ، كأكمل ما يكون هذا الفهم اليوم ، في قمة النصف الأول للقرن العشرين ؛ ولأنه فهمه ، حق الفهم ، لم يرد إلى إثارة النزاع الطبقي ، في وقت

ما أحوج الأمة فيه، إلى التضامن والتآلف، ونبذ الخصام والنزاع، — هذا ثانياً.

أما أنه لم يفهم حقيقة الحوادث في روما، فهذا قول يوجه إلى غير الخليل، لأنه في نقمته على المجتمع الروماني، كان يدل دوماً على أي فئة من هذا المجتمع ينقم. تنقسم طبقات المجتمع الروماني، كما يفهم مطران، إلى ثلاث: الأغراب، وكانت لهم انظمة خاصة، وهؤلاء لم يتعرضوا لنقمة الشاعر. والعبيد، أوالأرقاء: ولم يكن لهم حقوق، وبالطبع فقد سكت عنهم مطران. والاشراف، وكلهم رومانيون أصلاء، وهم أصحاب السلطان، وهم المقصودون بنقمة مطران — هذا ثالثاً.

بقي الأمر الذي كله أُملي -- كما يقول الشريف الرضى في الزنجية الحسناء — وهو أن مطران لم ينقم على الشعب الروماني تعديا وتشفياً، وإنما كان يستنهض همم الشعوب العربية لاطراح النير.(١)

وأسمع الآن إلى مطران كيف يهزأ بمجلس الأعيان الروماني، وقد عين الطاغية قليقولا — وهو سلف نيرون — حصانه الهرم، رئيساً على المجلس:

افتدري من « فليقولا » وما	سامه الرومانَ مستخذين بُهرا؟
افتدري أي حكم جـائرٍ	ذلك الطاغي على الرومان أجرى
افتـدري ما الذي كلفهم	ذات يوم ضحكا منهم وسخرا
يوم أمسى غير مبق بينهم	من أسود الخدر من يعصم خدرا..

(١) قد لا تُستغرب حملة الاستاذ قدري قلعجي، على خليل مطران، في جريدة التلغراف البيروتية لأن الكاتب الذي يجعل غاندي علماً من أعلام الحرية، قد يجد اكثر من نقطه ضعف عند خليل مطران..

فتـــوى أفعولة لم ينوهـا غيره من قبل مهما يك جسرا
لوأسرّت نفس أشقى ظـالم بعضها ، أخجله ما قـد أسرا
ذاك أن ولى عليهم « قنصلا » فرساً من خيله أصهب تراً

وانظر إلى أمجاد ذاك الحصان ، يوم كان في زهوة الشباب ، ثم كيف صار في الشيخوخة :

كان في الخيل أبوه معربا بيناً نسبته ، والأم حِجرا
رحب شدق ، لاهزاً ماضغه(١) لاحب المتن(٢)، استوى خلقاً وأسرا
مشرف العنق ، ضليعاً هيكلاً لم يبالغ فيه من سماه غمرا
طالمـا استعصى على مُلجِمه في الصبى ، ثم على الأيام قرا
وبـــدا فيه وقار بعد أن كان خفّاقاً إذا حمل وقـرا
ريض للطاغي ، وأوهى عزمه كبر السن ، فما يسطيع كبرا
وغـدا في ظن مولاه بـــه دمثاً لاخوف من أن يحـذرا(٣)
مـــذعناً يصلح لـلاقرار في مجلس الأشياخ محموداً مقرا
فلهذا اختـاره صنوا لهـــم وهو لايحسبه أحدث كفرا
لم يكد يأمر حتى استبقت زمر تهتف في الندوة بشرى
بشروا الاعيـان بالند الذي صدر الأمر به ، قدِّس أمرا

أما إذا شئت أن ترى صورة الحصان في المجلس ، وكيف لاقاه الاخوان بالحفاوة والاكرام ، فانظر إلى خيال الشاعر :

ثم وافى بالجـــواد المجتبي ساسة قد لبسوا خزا وشذرا

(١) قوي الفرس (٢) عريض الظهر (٣) يغضب .

فـــدنـا مستأنساً لكنه ... موشك للريب أن يبعد نفرا
ساكناً آنـاً ، وآناً نزقـــاً ... يفحص الموقف ، أو يهمر همرا
بينما يسبل أذنيه وقـــد ... جحظت عيناه ، إذ يرنو مصرا..

أما كيف لاقى الاعيانُ الجواد الشيخ ، فهكذا :

أوشكوا أن يحزنوا ثم بدا ... فاذا ما ظن من حزن تسرّى
وانبرى من فـوره أرغبهم ... في رضا الغاشم يسترضي الطِمِرّا(١)
زاعماً مـــولاه يبلو ودهم ... بالذي أهدى ولا يضمر حقرا
وأتم الأُنس داعـون دعوا ... للجواد الشيخ : أجلل بك مهرا
لم يكن مُهراً ، وكم من فريـة ... بذلت في خطبة للود ، مَهرا

وتدور الجلسة ، في مجلس الاعيان !.

دارت الجلسة في حضرتـــه ... فأدار الذيل في جنبيه خطراً
وله سامعتا من لم يثق ... وله باصرتا من قل مكرا
إن أطالوا جدّ رفساً ، وإذا ... أقصروا حمحم تأنيباً وزجرا
وإذا حرك رأساً اكبروا ... وحيه ، لله ذاك الوحي درّاً !
كان إمراً شأنهم من جهلهم ... وقديماً كان شأن الجهل إمرا(٢)

والذي يبدو أن خليل مطران ، فهم كيف يوجه نقمته ، فهو لم يخبط كحاطب ليل ، ولكنه وضع النقط على حروفها .

وشاعر العصر يوصف بتقصيه الفكرة ، حتى يهبط إلى الأغوار

---

(١) الجواد الطويل القوائم

(٢) الامر : المنكر

منها ، أويصعد إلى القمم ، هذه صفة في ابن الرومي يردها بعضهم عنده لشكه في قدرة عقول الناس على الاستيعاب والفهم ، أولأنه ينحدر من أصل رومي (١) والرأيان ، كما يظهر لي غير صحيحين ، فمطران إذ يزيد على ابن الرومي بصفة التقصي ، لم يكن على شيء من التشاؤم ، أوالشك بفهم الناس ؛ هذا إلى كونه ناصع النسب العربي .

أما القول الأصوب في الموضوع ، فثقافة الشاعرين الشاملة ، إلى قوة النظر عندهما ، التي ترى من الاشياء غيرسطوحهاالخارجية .هي التي جعلت فيهما هذه الخلة . على أن مطران ، في تقصيه الفكرة يتفوق على ابن الرومي ، بصفة التدرج الفني الرائـــع . فتأمل إلى الألفاظ ، كيف تنسجم مع المعاني ، وهي تتدافع إلى القمة ، عندما يصف تعلق الأمة ، بنيرون المدلل — على حـــد تعبير رئيف خوري (٢) :

بلغ التمليق منهـا أنهـا ... كلمـا أزرى بها شدته إزرى
كل يـــوم يدعي فناً فمـا ... هو إلا أن نوى حتى أُقِرا
قال : بي حسن ففالت : وبـه ... يافقيد الشبه ، فقت الناس طرا
فـترقى ، قال : إني مطرب ... فأجابت : وتعيد الصحو سُكرا

(١) لم اثبت مصدر الرأيين فهما بلغا من الشيوع والتقبل حد البداهة .

(٢) جمع كاتب الحرية الكبير رئيف خوري ، جملة من أشهر قصائد شاعر العصر في الحرية سمّاه « الطغاة » .وقدم الكاتب المحترم لكل قصيدة — عدا مقدمة الكتاب — بما يساعد على أن يعيش القارىء والشاعر في جو واحد ، وكذا اللوحات الفنية الرائعة ، يقتضي لها الدليل البصير . هذا وقد جعل الكلمات « منقوطة ! » مشروحة مشكولة فساعد على تفهم المقصود ، فجاء عمله ، جميلاً جديداً ، قدمه للجيل العربي الجديد .

فتمادى ، قال : في التصوير لي غررٌ ، قالت : وتؤتي الرسم عمرا
فتغالى ، قال : في التمثيل لا شبه لي، قالت :وتحيي الميت نشرا
فتناهى ، قال : إني شاعر فأجابت : إنما تنظم دُرّا

وتعرو الظالم جِنّة تزين له الذهاب إلى اثينا ، وهي المنكوبة بالاستعمار الروماني — ليعرض على أهلها فنه في التمثيل ، فاذا استقبلته أثينا — على عقلها — بالحفاوة والتكريم :

فكذاك الرق يدني من عُلىً ويعيد الأمة الحرة عُرسى(١)

ويعود الطاغية ، إلى روما ، ، فيستقبله أهلها ليلاً بالزينات والاضواء، التي جعلت من روما « سماوات وزُهرا » ويستهويه المنظر ، وهو الفنان العظيم ، فيوحي اليه فكرة إبداع قصيدة تضم كل الفنون :

فتقوم الزينة الكبرى بما بعده لاتذكر الزينات صغرى

أما القصيدة الجامعة ، فحريق روما ! .

وهنا أحار في أي مقاطع « القصيدة ! » انقل إليك ، فريشة الشاعر الفنان ، قد عملت على تصوير مشاهد الدمار والهلاك اللذين حلاّ بروما، بما لازيادة لرسام عليه : فمباني المدينة مهدمة ومعابدها مخربة ، وجدرها ملطخة بالدماء وطرقها تغص بالجثث المعفرة ، الملقاة على الأرض ، بعيونها الشاخصة ، وافواهها الفاغرة ، وأيديها المطبقة على التراب .

وضواري حدائق الحيوانات تهجم للفتك ، وسرعان ما تصطدم بروابي النيران الزاحفة ، ويخوض فيها الوقد ، فتتهاوى كالسكارى مهراقة الدم ، خامدة الانفاس :

(١) عرى : معيبة .

شبت النار بها ليلاً وقـــد ... رقدت أمتها وسنى وسكرى..
زحفت رابية مضرمـــة ... تلتقيها في عناق الوهج أخرى..
فالمباني تتهاوى والجُذى ... تترامى ، والدمى تنقض جمرا
والأناسيُّ حيارى ذُهّل ... غامروا هولاً وساء الهول غمرا
خوّض في الوقـد إلاّ نفراً ... تخذوا الأشلاء فوق الوقد جسرا...
والضواري انطلقت لاتأتلي ... ما التقت عضاً وتمزيقاً وكسرا
هجمت للفتك ثم انهزمت ... فزعات ساريات كل مسرى
كثر اللحم شواء حولهـا ... وتأبت بعد جهد الصوم فطرا
تتهـاوى مهراقـــاً دمهـا ... وبهـا ضعضعة النازف خمرا

ونهر التيبر ، بعد أن كان بالأمس ، كالمرآة الصافية تنعكس على صفحتها ، ظلال الروابي الخضر ، والقصور الدكن ، القائمة حول شطئانه وضفافه ، فاذا ما لامست النسيمات صفحته ، انحطمت الصور قدداً ؛ وبعد أن كانت امواجه كالجواري الخرد ، تتقلب في عبابه سابحات ضاحكات ، تملأ جنباته ، روعة وطهرا ، حيث يرسلن ، على اكتافهن من زبده ، ضفائر ذهبية شقراء — نهر التيبر الذي كان بالامس كذلك ، أصبح في غمرة الحريق ، يبصق الدم واللهب وامست مياهه الباردة العذبة ، غسلينا محموما. وانقلبت حسناواته وعرائسه ، إلى انثيات من الجن ، سوداوات الوجوه ، خزر العيون ، لابسات حللاً من الدخان فوق حلل الارجوان ؛ وإليك هيكل اللوحة الفنية ، وخطوطها الأساسية :

... كان بالأمس كمرآة صفت ... ربما كدرها الطائر نقرا

تلتقي فيها صروح عبست ... قاتمات ، وربى تبسم خضرا

فاذا مرت نسيمات بها ... حطّمتها قدداً ربداً وغرا ...

إذ ترى الامواج فيه أعرضت ... مالئات صفحات الماء سحرا

كجوار سابحات خرّد ... سابقات في تباريها ، وحسرى

لاهيات مغربات ضحكاً ... آمنات لمحات الريب طهرا

أرسل الحسن على اكتافها ... من ضفير الزبد المذهب شعرا

كل غيداء . . . . .

أصبحت سود سَعَال ساقها ... سائق يوسعها حثاً ونهراً

في مسوح من قتار (١) يجتلى ... أرجوان تحتها من حيث تفرى...

عاد صافي اللون منها رنقاً ... وضحوك الوجه منها مكفهرا

شرقت لماتها (٢) أصبغة ... ورنت اعينها النجلاء خزرا

صار غسلينا حميما غسلها ... كاسباً من حر ما جاور حرا

أيْ بنات الماء غبنٌ بينٌ ... أن تريْ سوداً وما ابهاك شقرا

ذاك ما أحدثه البغي وهل ... أدرك الصفو فلم يردده كدرا

قام سور حول « روما » ساطع ... ناشراً أعلامه كُمتاً وصُفرا

تحت جو ملئت أرجاؤه ... من تلظيها قتاماً مسبكرا (٣)

ينظر الغاشم في أقسامها ... حذقه رسماً وموسيقى وشعرا

---

(١) دخان . (٢) شعر مقدم الرؤوس . (٣) منتشر .

وإذن فالطاغية لم يحدث بحرقه المدينة أمراً مستفظعاً، لقد كان يصور، ويشعر، ويعزف!.

ومن هنا رسم مطران بأكثر من ثمانين بيتاً من القصيدة، الصنيع الفني الذي خُيل للطاغية أنه أحدثه، تصويراً وشعراً وموسيقى. وهذه المقاطع التصويرية الرائعة تدل على مخيلة مطران اللاهبة، وقدرته العجيبة في الوصف. وهي من أقوى مقاطع القصيدة. وإذا ما انتهى منها يبدأ بعتاب الطاغية على غلوه في الفن:

غير أني لي على ابداعه ... عتب فن، وهو بالابداع أدرى!
فلقد أغرق في إيقاعه ... وغلا رسماً وزاد النظم نثرا
ولعل الهفوة الأخرى له ... أنه لم يعتدل نقشاً وحفرا
ذاك همي ليس همي بلداً ... باد خنقاً أو توى حرقاً وثبرا
ما علينا من غريم غارم ... إن ازرى الخلق شعب مات صبرا!..

أترى في هذا الشعر تشفياً من الشعب الروماني، أم تحميساً للشعوب الناهضة للحياة، وهل ترى فيه مغالطة أم توجيهاً؟. إن خليل مطران هو أحد رجال قلائل — وليس أكبر شاعر عربي فقط في الشرق كله — سلكوا سواء السبيل، وجاهدوا مخلصين، لبناء عهد جديد، واستعادة مجد العرب!.

ويتهم الطاغية، نصارى روما باحراقها؛ والنصارى يومئذ فئة قليلة، لاحول ولا طول لها. لاتبالي في سبيل دينها الجديد، عنتاً أو اضطهاداً وعنّ للمجرم أن يطعمها لجياع الوحش، في الملعب الروماني الكبير، الذي لايتوافد اليه إلا الرومان الأصلاء:

ورماهم بالضواري قرمت(١) فارتمت مجنونة وثباً وجأرا
فتلقاها النصارى وهمُ لم يضق إيمانهم بالضيم حجرا
سُجّد شادون سام طرفهم ضاحكو الآمال ما الخطب اكفهرا
بربرت تلك الضواري دونهم ثم شدّت، وهي لا ترحم شفرا(٢)
هشمت وانتهشت وافترست ما اشتهت نهمتها عظماً وهبرا
ثم كلت شبعاً وافترقت في الزوايا تتوخى مستقرا
سكر الأشهاد اعجاباً بها وهوت مملوءة بالدم سُكرا
ذاك مارام به نيرون أن يتلافى إثمه الأول سترا

وانظر إلى شاعر العصر، وهو يوجه، ويقرع:

شاد للالهاء ذاك المنتدى قبل أن يبنيَ للايواء جدرا
والأولى زالت مغانيهم بما شيد للألعاب محبورون حبرا(٣)

واسمع الآن الى الخليل، إذ يقرر، ان الفكرة الحرة لاتموت، ولو سيم أصحابها بلاء الاضطهاد والقتل:

خاب من خال النصارى هلكوا حين راح الموت فيهم مستمرا
فالذي أولده الفتك بهم أنهم قُلّ غدوا بالقتل كثرا
ثم أضحى ملك روما ملكهم ومولاّهم على الأحبار حبرا
هكذا الفكرة من أرهقها كمنت ثم علت وثباً وطفرا

وتكون نهاية الطاغية انتحاره، بيد مستأجر:

(١) القرم: النهم إلى اللحم. (٢) شفرا: أحداً. (٣) سرورا.

ملقياً جسماً إلى أمته خشيت حرمانه دفناً وقبرا
سرفاً في الذل حتى أنها لم تكن تدري لما تفعل قدرا

أما الحقيقة فتبدو للشاعر هكذا :

كل قوم خالقو « نيرونهم » « قيصرٌ »قيل له أم قيل « كسري »!.

هذه القصيدة التي تنوف عن أربع مئة وثلاثين بيتاً من الشعر هي ولا شك « معلقة العصر » ويجب أن تنقل إلى لغات كثيرة غير العربية، وتكتب بماء الذهب ، اوالفضة ، لافارق ، ثم تعلق على جُدُر الأكواخ أوالقصور ، مرة أخرى ، لافارق ، فتعصم الأقوياء عن التمادي في الظلم ، وتعصم الضعفاء عن التمادي في الذل . وتكون الانسانية خيراً عميماً ...

والتاريخ المصري ، أينسى مطران فراعينه ؟ . لقد رأى شوقي ، أمير الشعراء ، من الأهرام المخلدة على الدهر ، سطوحها الخارجية ، وفخامة مقاديرها ، ومتانة تركيبها وبنائها ، فأرسل فيها الموسيقى الشجية في القوافي المجلجلة . أما مطران ذو النظر الذي يرى من الاشياء ظواهرها والبواطن، فقد انفلت بخياله الرحيب عبر هذه الآلاف الثلاثة من الأعوام ، ليرسم لنا مواكب الموت . وهي تزحف بالخطوات الخرس ، والوجوه الصفر ، والظهور المحنية ، تدب كالنمل ، لاتفتح ترعة ، أوتخرم جبلاً ، أوتردم بحراً ، ولكن لتبني هرما ؛ قبراً للفرعون ! :

شاد فأعلى وبنى فوطّدا لاللعلى ، ولا له ، بل للعدى
مستعبد أمته في يومه مستعبد بنيه للعادي غدا
إني أرى عد الرمال ههنا خلائقاً تكثر أن تُعددا

صفرَ الوجوه ناديا جباههم كالكلاء اليابس يعلوه الندي
محنية ظهورهم ، خرسَ الخطى كالنحل دب مستكينا مخلدا
مجتمعين أبحـــراً منفرعيـــــن أنهراً منحدرين صُعَدا
أكل هذي الانفس الهكلى غدا تبني لفانٍ جـدثا مخلَّدا

وكان يهون الأمر ، لو استعبد الفرعون أمته في يومه ، لتبني له قبره؛ ولكنه باستعباده لها قتل فيها الشعور بالشخصية ، بالحياة ، بحيث أنها سهلت فيما بعد على الفاتحين فكانت جريمته مزدوجة :

مستعبد أمته في يـومه مستعبد بنيه للعادي غدا

وكأني بشوقي ، بعد أن سارت قصيدة مطران بين الناس ، وخاصة بين الذين يعرفون كيف يقرأون وماذا يقرأون ، أدركه بعض الخجل ولكنه أبى أن يتراجع ، فكان كالمحامي — لامؤاخذة من الزملاء — الذي يريد أن يكسب القضية ، بأي ثمن ، ولو بكثرة الكلام ، والسيطرة على القاضي . أما قضاة شوقي ، فصحافة تلك الأيام ، التي أوسعت صدرهـا لمثل هذا الكلام :

أجل : من بناء الظلم إلا أنهـا يبيض وجهُ الظلم منها ، ويشرق

أما كيف يبيض وجـــه الظلم ، وكيف يشرق ، فهذا من غريب « الأمير » — رحم الله بشارا ..

وكنت أحب أن انقل لك شيئاً من « رعمسيس الثاني » التي يقول في بعض ابياتها وهو يصف الشعب الزاحف لتقبيل التمثال المعبود :

فبجلت تحت تاج الملك مُدميَها وقبلت دمها في المرمر القاني

أوقوله ، وهـو يصف أن المصائب الفنية ، قد تكون في بعض الاحيان ، أشجى منها في الأشخاص :

ورب رزءٍ بآثار أشد أسى | منه ملمّاً بأشخاص وأعيان
والتاج أشجى إذاما انقض عن صنم | منه إذاما هوى عن رأس انسان !

لكنني أثرت الاختصار مرة ثانية ، لانتقل واياك قليلاً إلى زمن مطران.

صور من الواقع

وعندما يكون الشاعر في طراوة العمر ، تطغى أمة الجبل الأسود على فاتحيها من الترك ، وتهب جبالها المنيخة ، في ثورة لاهبة ، كالابل الشرد.

وكنت ذكرت في صفحات سابقات ، مقطعاً من القصيدة ، إذ كنت أبحث موضوعية الخليل ، وشعره الملحمي . وذاك المقطع المـــذكور في مكانه ، يمثل صورة عامة ، من صور حرب العصابات التي تحدث في كل الثورات ضد المستعمرين ، فهو من خيال الخليل العام . وأما المقاطـــع التالية التي سأسوقها لك ، فتطلق ذاك الخيال العام — على روعته التصويرية عنـد الخليل — منتقلة إلى التخصيص ؛ وتـدب الحـرارة في القصيدة شيئاً فشيئاً :

وكان من الترك جمع قليل | على رأس منحدر أصلد
كثير الثلوم كأن الفتى | إذا زل يهوي على مبرد

وقد نصبوا فوقه مدفعاً ... يهز الرواسخ إن يرعد
وحفوا كأشبال ليث به ... يداعبه بعضهم باليد
ففاجأهم هابط كالقضاء ... في شكل غض الصبى أمرد
يدل سناه وسيماؤه ... على شرف الجاه والمحتد
ترد سواطعُ أنواره ... سليمَ النواظر كالأرمد
أقب الترائب غض الروادف ... يختال عن غصن أميد

لهيب الحروب على وجنتيه ... والنقع في شعره الأسود
وفي عينه مثل برق السيوف ... وظل المنية في الأثمد

فأكبر كلهم أنه ... رآه تجلى ولم يسجد
وظنوه مستنفراً هاربا ... اتاهم اتيان مستنجد
ولم يحسبوا أنّ ذا جرأة ... يهاجم جمعاً بلا مسعد
ولكن كثرتهم لم ترعه ... فأقدم اقدام مستأسد
وأفرغ نار سداسيه ... على القوم أيْما تصب تقصد
وأقبل بالسيف ماضي الفرند ... فايان يضرب به يغمد
فأودى بأربعة منهم ... ولم يشف منه الفؤاد الصدي
وكم جالدوا بطلاً قبله ... فلم يبتلوا بفتى أجلد
على أنهم أثخنوه جراحاً ... ولم يستقر ولم يُخلد
وما لبثوا إن أحاطوا به ... فدان لهم صاغراً عن يد
ولولا اتقاء الخيانة فيه ... لكان الألد له يفتدي

وقد يقف القاريء عند هذا المقطع من القصيدة ، معجباً من حيث هو كل ، ومن حيث هو أجزاء ؛ فصورة الجنود الترك إذ يحيطون بالمدفع ، يداعبهم بعضهم باليد ، تنطبق من وجهة نظر التشبيه ، على الاشبال إذ يداعب بعضهم أباه الأسد ، وليس من كمال الصورة أن يداعبه كلهم . — هذا على ما توحي الصورة من تداعي أفكار ، وما تثير من خواطر .

وصورة الفتى الثائر ، الذي انتزع مطران أوصافه ، من صميم المعركة فوجنتاه ، لهيب الحروب ، وشعره ، دخان المعركة وغبارها الاسود ، وفي عينيه مثل برق السيوف . هذه التشابيه تدل على دقة الخليل الفنية ، فهو يفصل أثواب المواضيع على قدها ، وقد يكون الفن في الانسجام ، وقد تكون البلاغة ، مطابقة مقتضى الحال . أما الظواهر السلوكية التي خلعها مطران على الفتى وهو يهاجم عرين الأسد فبطولات تشبه الاساطير ، على أنها كم تقرب من الواقع ! .

هذه — على لغة الزراع — بذور منتقيات ، لامذرات ، تصلح للبذر في حوض الأدب العربي ، لاستنبات غرسة الشعر الملحمي الراقي — أما إذا أصر ، صديقي أبو ليلى ، على أن شجرة شعر الملاحم نامية في أدبنا ، فليعذرني إذا قلت أنها كانت قبل مطران ، لاتثمر ! .

واسمع نهاية هذا الفتى :

فسيق إلى حيث كان الأمير ... في نفر منهم موفد
فأوقع أمراً بأن يقتلوه ... بمرأى الجنود غداة الغد
فأقصى الفتى عنه حراسه ... وشق عن الصدر ما يرتدي
وأبرز نهدي فتاة كعاب ... بطرف حيي ووجه ندي

كحقي لجين بقفلي عقيق وكنزين في رصد مرصد
فكبر مما رآه الأمير وهلل كل من الشهد
وراعهم ذانك التوأمان وطوقاهما من دم الأكبد
ووثبهما عندما أطلقا إلى ظاهر الدرع والمجسد
كوثب صغار المها الظامئات نفرن خفافاً إلى مورد
وأرخت ذوائب من شعرها كليلة ذي كلف مسهد
ظلام أحاط بشمس عراها سقام فحالت إلى فرقد

الحق ان المفاجأة ، وهي عنصر فيهام في الموضوع ، كانت شديدة الروعة. كما ينتقل الفكر سريعاً من الاعجاب بجمال البطولة إلى الاعجاب بجمال الجسد ، وليس هذا تناقضاً في فن الخليل ، فلكل مقام مقال : فاذ كانت ترتدي ثياب الفرسان ، فوجنتها من لهيب الحروب ، وإذ تعود انثى فطوق نهديها من دم القلوب ! .

غير أن لي اعتراض — على لغة المحامين — وقديكون لي اعتراضات كثيرة ، على نواح من شعر الخليل ، كبعض الألفاظ ، التي يستعملها دون انتقاء ، أوبعض الموسيقى التي تأتي خافتة أوفاترة في بعض الاحيان، أوبعض الصور التي لهـا أصول فرنجية غريبـة ، غير أنني ما أنشأت الكتاب لمثل هذه الانتقادات الباهتة ! .

أعود إلى القول أن تشبيه النهدين ، بخشفي الظبية التوأمين ، بما فيها من نفور وبضاضة ، وانسجام ، وحركة ، ولين ، هو تشبيه جديد ، يزحم بما فيه من صفاء وصدق أجمل التشابيه المرسلة في هذا المجال — غيرأن الصورة ليست للخليل ، وإن كان زاد عليها . وأذكر أن الكلام ورد

هكذا ، أوما يقربه في نشيد الانشاد في التوراة ، على لسان راعي الغنم ، وهو يصف حبيبته ناطورة الكروم :

ارأيت السوسنة بين الشوك هذه حبيبتي بين البنات

عيناك كحمامتين ...

نهداك كخشفي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن (١)

وبعد فلا ينكر أثر التوراة ، في أكثر شعراء الدنيا ، وخاصة شعراء النصارى في لبنان ، وأخصهم الياس ابوشبكة ، وأمين نخله ، وسعيد عقل ، ويوسف غصوب وقد ألتقي معهم في غير هذا المقام — دون تهديد! .

وقد تسأل عن نهاية القصة ، في فتاة الجبل الأسود :

وقالت خذوا مهجتي في دماء	ثلاثين منكم أوأزيد
صرعتهم كلهم باسلٌ	من النكس فيهم إلى السيد
وكلهم طامع في العلى	وإلا ففي موت مستشهد
ومن خلق الترك أن يوردوا	نصالهم منهج الخرّد
فدونكم قتلةً حللت	تدي من دمائكم ماتدي (٢)

والظاهر أن ظروف الخليل — كما يقول رئيف خوري — اضطرته إلى تصوير الأتراك حكام الجبل الاسود صورة مقبولة . ولكن ما لنا

---

(١) ويعذرني شراح العهد القديم ، وعلى رأسهم أوريجانس ، وبرنردوس - يرحمها الله - فأنا لاأعتقد أن نشيد الانشاد ، هو نبؤة لسليمان النبي ، وان الفتى الراعي هو السيد المسيح ، وانه يتغزل بناطورة الكروم . وهي الكنيسة . إنني أعتقد أن سليمان كان شاعراً فحلاً والسلام ! .

(٢) من الدية : مال تعويض عن الدم .

ولهذا التعليل ، فقد يكون القائد الذي عفا عن الفتاة ، من أصل عربي ، وكفى الله المؤمنين شر القتال :

فأصغى الأمير إلى قولها ... ولم يستفز ولم يحقد
وأعظم نفس الفتاة وبأسا ... بها في الصناديد لم يعهد
وحسناً بمشركة داعياً ... إلى الشرك من يره يعبد
وقال انقلوها إلى مضرب ... يعدها به أمهر العود
وقال لمن حوله معجباً ... لها الله من أسد أصيد
ومن حرة لن تكون ولن ... يكون بنوها من الأعبد
فما بلد تفتديه النساء ... كهذا الفداء بمستعبد

لعلك تذكر ، إن كنت قرأت مدخل هذا الكتاب ، أنني كنت تمنيت على السادة الأدباء لو جعلوا الأدب ، في ظروفنا اليوم ، توجيهيا ، وفي خدمة الشعب ؛ ولم أخش أن يظن الناس بي ، واعظ مسجد أو كاهن دير ، فليس في الذي سلف ما يشجع على مثل هذا الاعتقاد . لكن الذي خشيته ، اعتقاد الناس أني أريد الأديب واعظاً اجتماعيا يؤدي رسالة الأوامر والنواهي ، كأكمل ما تكون هذه الرسالة . ومعاذ الذوق ، أن أهدف إلى مثل هذه الفكر . أجل فأنا اؤمن برسالة الأديب التوجيهية . شريطة أن تكون في نطاق الفن الذي يغري جميع ملكات النفس ويهيجها للشعور به .

وشد ما يؤلمني ، أن يقف شاعر ضخم كحافظ ، شاعر النيل — أوكما يقول استاذنا مارون عبود عن الأخطل الصغير ، شاعر كل الانهار — فيصرخ في الشعب المصري :

.. الأم مدرسة إذا اعددتها اعددت شعباً طيب الاعراق
الأم استاذ الاساتذة الأولى شغلت مآثرهم مدى الأفاق
أنا لاأقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الاسواق

كما انني لااقول لكم أن تسرفوا في الارهاق والتضييق ، فان نساءكم ليست حلى وجواهراً ، تصان في الاحقاق خوفاً من الضياع ، وعليكم ان تربوا النساء على التقى والفضيلة .. إلى آخر قصيدة حافظ النثرية .

إن غرض حافظ توجيهي تربوي ، هـذا لاشك فيه ، غير أن الفن شيء ، وحسن النية شيء آخر . وتوجيه المرأة التربوي والاجتماعي ، في « فتاة الجبل الأسود » « وبزر جمهر » ، وغيرهما من شعر خليل مطران ، يختلف عنه في كتابات قاسم أمين ، وحافظ ابراهيم ، وشحادة الخوري وهذا العاجز (١) ! .

وعلى ذكر المرأة ... يسوقني الفكر إلى نساء الترك ، حيث وردن في شعر خليل مطران أكثر من مرة ، كما وردن في شعر أمير الشعراء شوقي ... غير أني اقتصر على واقعة اجتماعية ، حدثت في زمنهما ، ونظم فيها كلاهما ، أما الحادثة الواقعة ، فالانقلاب العثماني ، واعلان الدستور ، وسقوط عبد الحميد ؛ أما قصيدة مطران ، واسمها نشيد الحريـــة ، فتعنى

---

(١) نشر واضع هذا الكتاب ، بالاشتراك مع الكاتب السوري الناضج - ولا ضرورة للشيخوخة في النضج - كتاباً سياه « حول المرأة » بحثا فيه كثيراً من شؤون - لاأقول شجون - المرأة التي تتصل بالاجتماع - وهذه الحاشية ليست من باب الاعلان ، على طريقة الدكتور زكي مبارك ، ولكن اقتضاها سياق الحديث ...

بتمجيد أحرار الترك، الذين مهدوا للانقلاب العثماني الكبير، والاشادة ببطولة النساء التركيات اللائي كن يحملن رسائل الفدائيين من داخل حدود السلطنة، إلى الاتراك الأحرار الذين يعملون للدستور خارجها، في اليونان، وسويسرا، وباريس.

أما قصيدة شوقي، وتحمل اسم الانقلاب العثماني، ويحلو لي أن أسميها، نشيد العبودية، أو البكاء على الانحلال والانحطاط، اذ تصف حزن الشاعر على السلطان المخلوع - بالعنيين - وبكاءه على نسائه المشردات، بعد أن كان يجمعهن «كيت كات» يلدز. وبعد ان كن يأمرن على الولات وينهين على الصدور العظام، وبعد أن كان ينتظر اولو الامر من حاجبهن غمزة، أو من ثغرهن بسمة، لتنفذ المطالب الشاهانية، أصبحن - ويالأسف شوقي، إن صح التعبير - أضيع من الأرتيستات في بلد لا يفهم الفن!.

فاسمع يارعاك الله، إلى أمير شعرنا، وهو يندب الحسن المشرد، والعز المضيع، وانشق على مهل، خلاصة شعر الغريزة، ولتسبح أذنك، بأصفى انغام الموسيقى:

سل «يلدزا» ذات القصور هل جاءها نبأ البدور
أين الأوانس في ذرا ها، من ملائكة وحور
المترعات من النعيم، الراويات من السرور
العاثرات من الدلا ل، الناهيات على الصدور
الناعمات الطيبا ت العرف أمثال الزهور
الذاهلات عن الزما ن، بنشوة العيش النضير

المشرفات وما انتقلـ ـن على الممالك والبحور
بين الرفارف والمشا رف والزخارف والحرير
يطلبن نصرة ربهـ ـن، وربهن بلا نصير

هل يريد هذا المؤمر على الشعر العربي، ان يطعن بكرامة الدساتير، إلى هذ الحدالمخزي، ويخمد الجذوة الحرة المتقدة في نفوس الشباب العربي بمثل هذا الاستخفاف والاستهتار المخجل؟ ومن أنبأه أن الموسيقى والألفاظ كل شيء في الشعر؟ وكان يهون الامر لو أن شوقي شاعر عادي ولكنه رائد جيل جديد، وأمير الشعراء العرب. هذا الكلام لاأوجهه إلى شوقي، فقد أصبح في ذمة التاريخ - ولكنه يُساق إلى هؤلاء المصفقين، ليكفوا، إخلاصاً للأدب العربي الواعي، ورحمة بهذا النشء العربي الجديد!.

ذاك شعر تمليه الغرائز التي لم تتطور بعد، أما المدارك المتطورة والغرائز المصعدة، والعواطف الشريفة، فتلهم صاحبها أن يقول، كمثل شاعر العصر:

حُييتِ خير تحيه يا أخت شمس البريه
حييتِ يا حُريه

إلى أن يصف التركيات يحملن رسائل الفدائيين:

حسناء ذات ابتسام هتاك ستر الظلام
لحاظها دريه
تسير سير الملائك على فخاخ المهالك
بخطرة ملكيه

تضم في الصدر سرا يصبح الملكَ جمرا
إن تبدُ منه شظيه
تمضي رسولاً امينا تؤتي البلاغ المبينا
رضية مرضيه
لاغرو فيما أبادت من حكم فرد وشادت
من دولة شوريه
بلفظة دونتها أولحظة ضمنتها
إشارة معنويه
يا سرها كنت آيه قد انزلتها العنايه
في صفحة جوهريه
روته عنها شفاهُ أجرى عليها الالهُ
عذوبة كوثريه
ياغادة الترك حمدا أنت المثال المفدى
للحسن والأريحيه
ابطلت رمي النساء بالغدر والافشاء
وكنت تلك الوفيه

وعندي، أن الوقت قد أزف لدى وزارات التربية والتعليم في بلاد العرب، وخاصة في سوريا ولبنان، لتدريس شاعر العصر، إلى النشء الطالع، ليتوفر له فكر جديد حر، وخلق قويم متين، هذا إلى الثقافة الفنية، الخالصة الفن!.

وتماسك مطران الخلقي ، وانسجام ذوقه الفني ، عصماه من الوقوع في كثير من التناقض الفكري الذي يقع فيه كثير من الشعراء ؛ فهو منسجم مع نفسه إلى أبعد حدود الانسجام ، وهو ليس شاعراً فحسب ولكنه فارس يخوض المعركة ! . وهو إذ يفضح مآرب الاستعماريين في بلده ، فلا يغض عنهم الطرف في غير بلده . واسمع إليه وهو يهيب بالأدباء للنزول من الابراج العاجية إلى ساحة النضال الوطني ، وهو اتجاه جديد في الأدب . نادى به كثير من أدباء الحرية عندنا ، قبل هذه الحرب الأخيرة بقليل . بينما كشف مطران عن ضرورته ، قبل نصف قرن :

فيمَ احتباسك للقلم ... والأرض قد خضبت بدم
سدد قويم سنانه ... في صدر من لم يستقم
نبه به أمم الزوال ... فعلّه يحيي الرمم ...
قل يافتى الشعراء قل ... لبتك أم عصت الهمم

إن قصيدته هذه «حرب غير عادلة ولامتعادلة» — وقد تكون الحرب التي شنتها انكلترا ، ضد جنوب افريقيا — تدل على وعي مطران السياسي ، ونضجه النضالي وكرهه الشديد للاستعمار ، فاسمع :

اليومَ يوم القسط قد ... قام الأولى ظلموا فقم
بين الذين يقاتلون ... وبيننا قربى النقم
من يستبحه عدونا ... فله بنا صلة الرحم !.

وقد ينبري لي مثلاً ، كامل شعيب ، شاعر الارتجال الأول ! —

كما عبر مرة ، صلاح اللبابيدي — ليقول ما هـذا الشعر الذي تمجده ، فطران ينظم القول المعروف : عدو عـدوك صديقك ؟!. مهلاً ياأستاذ ! فهذه « النبشة » ، وإن كانت لي ، فهي غير مـوفقة — وادخال مثل ذاك الشعر ، في التحريض على الاستعمار ، لأخطر عليه من استعمال القنابل الذرية ضده ، فقليلاً من التأمل والتجرد ياأولي الالباب !.

أما الأمة القليلة المناضلة :

هي أمـة مستحدث　　　تاريخهـا بين الأمم
ما شيدوا من هيكل　　　ضخم ولا رفعوا هرم
أرزاقهم حلٌ لطـا　　　لبها وموطنهم حرم
شم رواسيهم وأنـ　　　ـفُسُهم، ومَعطسُهم أشم

ويصف الخليل المعركة ، فترى وثبات شعر الملاحم :

هـذا لقاءٌ بوغتوا　　　فيه بنـار تحتدم
أنظر إلى هطل الجمـا　　　ر كأنه وكف الديم
وإلى القنـابل تستقي　　　مهج الجيوش وتلتهم
عمياء تبصر في الوغى　　　سبل العدو فتختـرم
مضمومة الفكين حتى　　　تلتقي ما تلتقم
تنقض وهي عوابس　　　حتى تميت فتبتسم
وانظر جموع نسائهم　　　ميساً كبانات العلم
غيدٌ يغازلهـا الرصا　　　ص وهل له أن يحتشم
وانظر الى الاطفال تحذ　　　ف وهي تلعب بالرجم

وإلى الشيوخ تخضبت بدمائها منها اللمم
وانظر الى صرعاهم كل كصرح منهدم
وانظر إلى فرسانهم ثاروا كأرياح هجم
وإلى المشاة كأنهم سور يسير على قدم
والقائمين الجاثمين ومن يكر ومن يهم
والهابطين إلى الثرى والصاعدين إلى القمم

ويقرر مطران هذه الحقيقة التي بدأت تحسها الشعوب والأفراد، وتؤمن بقوتها وعمقها، فالاستعمار صائر حتماً إلى الزوال:

لكنه مهما يفزْ بُدءاً يسوءُه المختتم

هل رأيت كيف يتنبأ الفكر الواعي عن مصير الاستعمار؟.

وأخيراً، وقبل إنهاء هذا البحث، أسوق لك مقطعاً من قصيدة الخليل، عتاب واستصراخ، وهي صرخة مدوية من صرخاته الكثيرة التي بعثها ضد الاستعمار الطلياني على طرابلس الغرب:

خلتم «طرابلسَ» الغنم المباح لكم وشر ما قتل الخُداع ما غنموا
هناك يلقى سراياكم وإن ثقلت عرب صلاب، خفاف في الوغى هضُمُ
جندٌ من الجن مهما اجهدوا انشطروا كأنما الوهي، بالاعداء دونهم
مهما تشنعت الحرب الضروس لهم أعارها ملمحاً للحسن حسنُهم
والأرض راقصة، والريح عازفة، والجد يمزح والأخطار تبتسم
مستظهرين ولا دعوى ولا صلف معذبين ولاشكوى ولا سأم
وقد يكونون في بؤس وفي عطش فما يقي الغرماء الري والبشم

كونوا ملائك لاجوع ولا ظمأ وليغلبن نظام الخلق صبركم

أليس منكم أوان الكر كل فتى يصول ما شاء في الدنيا ويحتكم

يقول للعلَم الخفاق في يده : فيئ من الأرض ماتختار ياعَلم.

ومن رافق مراحل الحرب الطرابلسية الطليانيه لايخطيء هذه الحقائق الكبرى التي قررها الخليل عن شجاعة العربي، ويذكر ولا شك تلك البطولات الاسطورية التي تقفز بالذهن إلى أمجاد العرب الأولى في فجر النهضة، حين هبوا لتأدية الرسالة العظيمة.

إني لأسمع من حزب الحياة بكم نصراً لامتنا سُحقاً لمن ظلموا

نعم لتنصر على الباغين أمتنا لابالدعاء، ولكن نصرها بكمُ

لتحي وليمُت الموت المحيط بها من حيث يدفعه اعداؤنا الغشم

الشعب يحيابأن يغذي، ومطعمه مال البنين من كدّ، والشراب دم

عودوا إلى سير التاريخ لاتجدوا شعباً قضى غيرمن ضلوا الهدى وعموا

اولئكم إنما بادوا بغرتهم وانهم آثروا اللذات وانقسموا

لاشعب يقوى على شعب فيهلكه فان ترَ القوم صرعى فالجناة همُ!.

فمطران لاينسى أن ينبه المصريين إلى ضرورة النضال الفعلي ضد الاستعمار لا الاقتصار على الاقوال المجردة. كما يقرر لهم تلك الحقيقة العظيمة، وهي أن الشعوب لاتفنى، وإنما هي مخلدة، ولو كره مستعمرو الشعوب.

خاتمة

الآن وقد كدت أرمي القلم ليستريح ويريح، اعتقد أن فريقاً من القوم، ستسره هذه الآراء في بعض فنون شاعر العصر، وغير شاعر العصر. وأن فريقاً آخر سيعتب، أو يحزن، أو يغضب، — إن لم يشتم — لهذه الآراء والأفكار عينها، فليثق الجميع إلى أن ما قلته في شاعر العصر، وغير شاعر العصر، هو ما اعتقده مخلصاً عند نفسي.

وليثق الغاضبون انني سوف لا استرضيهم في مناسبة أخرى، كما انني لا أحب أن أشكر الآخرين، على شيء هم منه منتفعون.

غير أن سؤالاً يعرض، لماذا أحب الخليل بهذا القدر؟.

لانني أحب الشعر العربي متفلتاً من قيود البداوة، رافلاً في حلل الحضارة

لانني أحب الشعر العربي مجلياً في ميدان الفن الرفيع، لا غارقاً في في موسيقاه والفاظه فحسب — وليطمئن العقاد، فلا يظنن عند نفسه الفن، إذ خلا شعره من الموسيقى، فشعره خال حتى من النظم! —

لانني أحب للشعر العربي الخلاص من قيود العبودية القتالة، والرق المزمن، والانطلاق به في آفاق جديدة من المعرفة والحرية والفن..

لقد مجد بعضهم في أوربا القائل — وقد نسيت اسمه — «لقد انتهى

الوقت الذي كانت فيه مهمة الفنان تأريخ التاريخ ، وبدأ الزمن الذي أصبحت فيه مهمته بناء التاريخ» .وصرخ مطران قبل هذا الوقت :

شيدوا تاريخكم من نقض ما شاده في أزل الدهر الطغاة !

فلماذا لااحب واهتف للشاعر العربي الخالد ، أليس هو من بنائي التاريخ الجديد ، في الوطن العربي الجديد .

بقي ، أن تقول لي أنت : لماذا لاتحب مطران ؟ .

الجدول المعروف !..

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٧	أثار	آثار
١٩	٧	ويرون	يرون
٢١	٢١	عمراً	عمرَ
٢٧	١٤	الكتاب	إلى الكتاب
٤٠	١٩	كيلوا	كيلو
٥٤	١٤	بخطوط	الخطوط
٥٤	١٥	متشائم	حزين
٥٤	١٦	تشاومه	حزنه
٦٣	٥	إذ	إذا
٦٥	٨	لفن	الفن
٦٥	١٦	سونسعلم	سنوسعكم
٧٢	٤	أدركا	إدراكا
٧٦	١٦	كثر	أكثر
٧٧	٩	مأخذ	بأخذ
٧٩	١٥	فيهم	فيمَ
٨٠	٩	قلبي	قلب
٨٢	١٥	النفع..	النقع

تتمة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٤	٦	ثمـان	ثمانية
٨٤	١٢	باأنس	ياأنس
٨٦	٣	تيمير	يتميز
٨٨	٤	ابل	أيل
٨٨	١١	صنع	صنيع
٩٢	٣	هي	هو
٩٣	٩	آثره	إثره
١١٢	١٤	نجاه	تجاه
١١٧	٦	صحفة	صفحة
١٢١	٨	آمان	أمان
١٣٠	١٩	الظليان	الطليان
١٣١	١٦	تقطعيها	تقطيعها
١٥٠	١٣	اعتراض	اعتراضاً
١٥١	٣	الينات	البنات

هذه هي الاغلاط المطبعية التي رأتها عين السرعة ، عدا الاغلاط التي ربما كشفتها عين التأمل والتأني . ولعل علاقة ما ، بين لفظتي انسـان ونسيان ! ..

893.79
J22

JUN 1 2 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58870385
893.79 J22
Khalil Mutran Shair